معارك رمضانية فاصلة
في
تاريخ الإسلام

بقلم

على القاضى



الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



مقدمة

يقول الله تعالى : ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ الحاقة : ١٢ .

إن الوجود الإسرائيلى فى وسط الوطن العربى يشكل تجربة مريرة فى تاريخ الإسلام والعروبة سواء كان ذلك فى الشرق أم فى الغرب .

وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج ، وإنما هى تجربة كبرى خطيرة مليئة بالدروس والعظات ، مما يتطلب منا أن نتأملها ونبحثها فى كل وقت ـ الآن وفى المستقبل لنستفيد من أخطاء الماضى ونتجنبها ـ نواجه أخطار الحاضر نتغلب عليها ، وسواء أكان التاريخ يعيد نفسه أولا يعيد ، فإنه من الواضح أن الأوضاع التى تحيط بالعالم العربى والإسلامى اليوم تجعلنا نشعر بأننا فى وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذى عاش فيه أجدادنا العرب فى نهاية القرن الحادى عشر، فإذا كنا نقف اليوم وجها لوجه أمام خطر اسرائيل التى أقامها الاستعمار فى أرض فلسطين ، والتى يحرص الغرب دائما على مساندتها وإمدادها بالمال والسلاح والرجال ليمكنها من المضى فى غيها وعدوانها ، فإن أجدادنا منذ تسعة قرون وجدوا أنفسهم أمام دولة غبية قامت فى البقعة ذاتها من أرض الشام وحرص الغرب على تزويدها بالرجال والمال والسلاح ليضمن لها البقاء والاستمرار .

وإذا كانت إسرائيل تستهدف الآن ـ تحت ستار إقامة وطن قومى لليهود ـ السيطرة على جميع الدول العربية فى منطقة الشرق الاوسط لتضمن إقامة دولة للصهاينة تمتد من النيل إلى الفرات ، فإن الصليبين فى العصور الوسطى ما

كادوا يثبتون أقدامهم فى فلسطين حتى شرعوا فى التوسع شرقا وغربا وجنوبا فى العراق ومصر .

وإذا كان التاريخ لا يبرئ حكام الدول العربية وساساتها الذين استكانوا لاستعمار الغرب لإسرائيل حتى تتمكن اسرائيل من الوقوف على قدميها ، فإن التاريخ لم يغفر أيضا لحكام المسلمين فى مصر والشام والعراق فى الماضى عدم اكتراثهم بالفرنج حتى إن المؤرخ ابا المحاسن تساءل عن السبب فى عدم خروج بعضهم لدفع الصليبيين مع قدرتهم فى المال والرجال ، وإذا كان أشد ما تخشاه اسرائيل ومن ورائها الدول الغربية الاستعمارية اليوم هو قيام وحدة عربية وإسلامية تجمع بين صفوف المسلمين وتضيف إلى وحدة الهدف وحدة الصف فإن الصليبيين فى العصور الوسطى استماتوا فى منع تحقيق وحدة الصف العربى.

وهكذا يبدو أن التجارب التى تمر بها الأمة العربية اليوم ليست جديدة عليها فقد سبق أن تعرضت للأساليب نفسها من الخيانات والدسائس والمؤامرات من قبل ، وبقى علينا أن نستفيد من هذه التجارب ونأخذ منها العبرة التى تعيننا فى التغلب على أكبر خطر يواجه المسلمين اليوم .

على أن أعظم درس تعلمه المسلمون طوال تاريخهم منذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام وحتى وقتنا هذا هو أن الجهاد الإسلامى الصادق والصلة القوية بالله تعالى وراء عزة المسلمين ومنعة بلادهم وخوف عدوهم منهم فلما غابت هذه الفرصة طمع فيهم الغرب واستهان بهم ، وغزوهم فى عقر دارهم وأذلوهم أيما إذلال وأحسب أن مؤلف هذا الكتاب قد استفزه ولع رجال الإسلام وقادته

العسكريين ومعاركهم الحاسمة التى ما زالت تدرس فى الكليات الحربية فى جميع أنحاء العالم فقد هاله تكالب المسلمين على الدنيا الفانية وملذاتها وتهافتهم على العرض الزائل وتناسيهم لعزة وكرامة المسلم التى أصبحت لا ظل لها فى عالم الأقوياء اليوم .

كما أحسبه صادقا أراد أن يذكر مسلمى اليوم ، بعد أن سيطر عليهم اليأس من الموقف الحالى وتخاذل الحكومات من الانتفاضة الفلسطينية والموقف السلبى من الصلف ، والتعنت الاسرائيلى ، والتفاخر بعظمة أجدادهم وعزتهم .

وهذا الكتاب يبين لنا أن المسلمين يضعفون أمام أعدائهم إذا تفرقوا واختلفوا وغرتهم الحياة الدنيا ، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى رشدهم ، إذا ما ظهر فيهم القائد الحكيم الذى يعمل لتحقيق وظيفة المسلمين فى الأرض ولا يهمه المال ولا الجاه ، ولا تغريه ملذات الحياة الدنيا وبذلك ينتصرون على عدوهم ويعيدون للإسلام مجده ، وقد تكرر هذا مرات كثيرة عن طريق المعارك الرمضانية الفاصلة على مدى تاريخ المسلمين ، وما هى إلا تذكرة للمسلمين تبعد عنهم اليأس والقنوط ، وتدفع فى نفوسهم حب العودة إلى الله والأمل فى المستقبل ، ولكن على جميع الأمة الإسلامية أن تعود إلى خالقها ، وتتمسك بأخوتها وترك حب الدنيا وبذلك ينصرون الله فينصرهم الله والله ولى التوفيق .،

صابر القاضى

الجهاد فى سبيل الله

تمهيد

شرع الله سبحانه وتعالى الجهاد للدفاع عن الإسلام ، ورفع الظلم عن الناس ، ونشر راية الإسلام لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، فالقتال فى الإسلام يكون لدفع الباطل ، ونصر الحق وبذلك لا ينتشر الفساد فى الأرض ، فتهدم أماكن العبادة فى الديانات المختلفة وفى ذلك يقول الله تعالى :﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج : ٤٠ .

فالباعث على الجهاد فى الإسلام أمران :

الأول : دفع الظلم ومنع الفتنة وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة : ١٩٣ .

والاعتداء على المسلمين يرد بمثله يقول الله تعالى فى ذلك : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة : ١٩٠ .

ثانياً : التمكين للدعوة الإسلامية عن طريق إزالة الحواجز التى يقيمها الملوك والحكام الظالمون أمام دعوة الإسلام وبذلك يعرف الناس الإسلام فإذا عرفوه فقد تبين لهم الرشد من الغى والحق من الباطل فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فلا إكراه فى الدين بعد أن تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .

والجهاد فى سبيل الله مستمر إلى أن تقوم الساعة ولكن يلاحظ أن أهم المعارك الفاصلة فى تاريخ الإسلام بين الحق والباطل كانت فى شهر رمضان .

وبذلك أتيح للناس أن يعرفوا الإسلام على حقيقته .

ورسالة محمد ﷺ للناس جميعاً على امتداد الزمان والمكان فقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين وشريعة الإسلام جاءت بمبادئ واضحة وفضائل الإسلام دافعة للشر حاملة على الخير ، ولذلك كان لابد لهذه الرسالة من قوة تحميها من ظلم الظالمين وتزيل العقبات المختلفة التى توضع أمامها وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ الأنفال : ٦٠ .

والله تعالى يوصى بالعفو والصفح إذا كان فى ذلك فائدة للدعوة الإسلامية يقول الله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة : ١٠٩ .

فإن كان هناك رد للعدوان فيكون بمثل ما فعل الأعداء يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة : ١٩٤ .

والحروب فى الإسلام شرعتها الرحمة وأظلتها الرحمة وأنهتها الرحمة ـ ومن الرحمة بالناس أن تقطع عناصر الفساد وأن يرد الاعتداء بمثله لسلامة الناس حتى يعيشوا فى راحة ـ وكلمة الحق تسرى بينهم بدون حواجز تحول دون ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة ١٩٣ .

والإسلام ارتقى بفكرة الحرب وسما بأسبابها فلا مكان فى الإسلام للقتال بهدف العدوان أو الرغبة فى السيطرة أو السعى إلى فرض نفوذ أو امتداد حدود .

وقد دعا الذين امنوا إلى أن يدخلوا فى السلم كافة فقال الله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِين ﴾ البقرة : ٢٠٨ .

ذلك لأن الإسلام دين الفطرة ، ولذلك فقد حصر فكرة الحرب فى أضيق الحدود فجعلها محصورة فى إنقاذ الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، كما جعلها للدفاع عن النفس وعن المال وعن العرض فقال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِير ﴾ الحج : ٣٩.

أو لتأديب ناكثى العهد فقال الله تعالى : ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ التوبة : ١٢ .

فإن رغبوا فى السلام فإن الإسلام يرغب فيه فقال الله تعالى : ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِين ﴾ البقرة : ١٩٢ .

ولعل المجتمع الإسلامى هو المجتمع الوحيد الذى يعيش فيه على مدى التاريخ أناس من غير المنتمين إليه دينا وهم يحسون بالأمن والاطمئنان والعدالة والمساواة إلى درجة أدهشت الناس فى جميع الأماكن والأزمان ، وفى ذلك كتب المستشرق الفرنسى (جوتينيه) فى كتابه (أخلاق المسلمين وعاداتهم) يقول : (مما نشاهده فى داخل البلاد الإسلامية قديما وحديثا : أن الإسلام يوجد دائما بين جناحية من المحيط الهادى إلى المحيط الاطلنطى طوائف من غير

المسلمين ، يهود ونصارى ومجوس وطوائف من المسلمين المبتدعين خوارج وأباضية ، ولم يفكر المسلمون يوما ، حتى وهم فى أشد أوقات حميتهم أن يضطهدوا أحدا غيرهم ـ ثم يقول : (إنها فضيلة تستحق كل الإعجاب والتقدير) .

وفى بداية الإسلام مكث النبى ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ثلاثة عشر عاما فى مكة ولقى ما لقى من العنت والمشقة والإيذاء ، كما لقى الذين دخلوا فى الإسلام الإيذاء والتعذيب وقتل بعضهم بعد تعذيبهم، ثم هاجر إلى المدينة ، ومازال الكفار يعملون على اقتلاع الإسلام من جذوره حتى نزل قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة : ٣٦ .

وقد أراد بعض المسلمين أن يكرهوا أبناءهم على الدخول فى الإسلام فنزل قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة : ٢٥٦ .

وكان النبى ﷺ يقول : لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموه فاصبروا وكان يقول : سيروا باسم الله فى سبيل الله وقاتلوا أدعاء الله ولا تغلوا (تخونوا) ولا تمثلوا ولاتقتلوا وليدا ولا طفلا ولا شيخا ولا امرأة) .

وكانت نهاية حروب النبى ﷺ تنتهى بأحد ثلاثة أمور :

١ ـ الموادعة وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ الانفال : ٦١ .

٢ ـ الصلح بانتهاء القتال على أساس العدالة والوفاء بكل ما التزم به الطرفان من حقوق .

٣ ـ الانتصار للمؤمنين والاستسلام من الكافرين.

معاملة المهزومين:

والإسلام يأمر بمعاملة المهزومين معاملة إنسانية كاملة فيها العفو والصلح، وهذا ما ظهر فى كل غزوات النبى ، وفى فتح مكة قال النبى لقريش : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم

قال : **أقول لكم ما قاله أخى يوسف لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ـ اذهبوا فأنتم الطلقاء وهذه السماحة لا يوجد مثلها فى** أية من الحضارات قديمها وحديثها .

الجهاد (رهبانية الإسلام) : قال النبى ﷺ : فى كل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد، ويتشابه المجاهد مع الراهب فى ثلاثة أمور، ويختلف فى أمر واحد .

يتشابه فى :

١ـ اعتزال الناس جملة والخروج من الحياة التى يحياها الناس لأنفسهم متمتعين بالحياة الدنيا وزينتها .

٢ـ الراهب يعتزل النساء ، والمجاهد التقى يعتزل النساء وينقطع عن الأولاد فى مدة الجهاد وهم فلذات أكباده.

٣ـ كلاهما قدم نفسه لله تعالى الراهب بالعبادة والمجاهد قدم نفسه ليحمى الحق الذى أمر الله تعالى بنصره .

ويختلف فى أن الراهب يعتزل الناس بعبادته الانفرادية والمجاهد يعتزل الناس ليحمى الناس وينصر دين الله، والإسلام منع الرهبنة لأنها فرار من الحياة وتبعاتها ولأنه يريد من المؤمن أن يكون نافعاً للناس ،فالعبادة فى الإسلام إيجابية، وهى مشاركة فى رفعة النوع الإنسانى ولذلك فإن الإسلام يعد كل نفع لأفراد المجتمع، يقول النبى ﷺ «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه إنسان أو ذو كبد إلا كان له بها صدقة» ، وروحانية الإسلام فيها سمو نفسى، وتحرر من الجسم وشهواته ، وتحسين العلاقات الإنسانية ، وأن يألف المؤمن الناس ويألفونه .

حب الجهاد:

والإسلام يربى المجتمع الإسلامى على حب الجهاد فى سبيل الله تعالى يقول فى ذلك : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ الحج : ٧٨

كما أنه يغير مفهوم الموت بالنسبة للشهداء فهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، وهذا يعطى للمجاهدين قوة دافعة يزيدها معرفتهم بأن الشهداء فرحون بما آتاهم الله من فضله يقول الله تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ آل عمران ١٦٨ : ١٦٩ .

فالقتال فى الإسلام عبادة لأن الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت وعلى المؤمنين أن يقاتلوا أولياء الشيطان لأن كيد الشيطان ضعيف .

والمسلم حين يملؤ نفسه بالرغبة فى التقرب إلى الله تعالى فإنه يقوم بكل ما يأمره الله تعالى به وهو محب له متطلع إلى لقاء الله عز وجل ، وبذلك لا يخشى على فوات شئ مما يرغب من متاع الحياة الدنيا ؛ ولا يرهب الموت لأنه سيجد البديل عن ذلك عند الله تعالى بل إنه سيجد ما هو خير منه وأعظم أجرا يقول الله تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران ١٦٩ : ١٧١ .

الإعداد المعنوى :

والإسلام يعد المسلمين الإعداد المعنوى الكامل للجهاد فى سبيل الله عن طريق وصلهم بالله تعالى ، وتمسكهم بقيم الإسلام ، ويوضح الهدف من القتال ضد أعداء الإسلام ، وتأكيد أن النصر ليس غاية فى ذاته ثم التحريض على القتال والإعداد الكامل للمعركة وهكذا يتبين لنا أن الحرب فى الإسلام كان أمرا لابد منه لإقامة الحق وإبطال الباطل ، ولا يمكن أن تتم الدعوة إلى الله تعالى إلا إذا أزيلت الحواجز البشرية حتى يتم تبليغ الرسالة ، فالله تعالى أرسل رسوله وأنزل كتابه فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها . ثم إن الحروب فى الإسلام حروب مثالية تعلم الإنسان المحارب أن يحترم إنسانية عدوه فهدف المسلم إحقاق الحق وإبطال الباطل .

والجهاد فى سبيل الله عبادة قد يكون ثوابها أكبر من ثواب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، لأن الهدف إخراج الناس من الظلمات إلى النور والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، وقد وضح القرآن الكريم أهداف الجهاد فى سبيل الله فقال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة : ١٩٣ .

وقد استبدل الإسلام نظرية الكم بنظرية الكيف فى الجهاد ، فالروح المعنوية العالية تعطى صاحبها مناعة ضد الحرب النفسية فلا تؤثر فيها أحرج المواقف وسورة الأحزاب مثلا تعطينا صورة لأصحاب الروح المعنوية العالية ، فقد رأوا ان الأحزاب قد أقدموا من كل جانب بقوات لا يقدر أحد على مقاومتها فما زادهم ذلك إلا إيمانا يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ الاحزاب : ٢٢ .

وفى سورة آل عمران يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ آل عمران ١٧٢ : ١٧٤ .

وهكذا نجد أن القتال فى الإسلام هدفه السامى الذى حدده الله تعالى ليرفع به من مستوى الإنسانية وليقيم العدالة فى هذه الأرض .

وقد اشتهر المسلمون بأنهم يحررون الشعوب من عبادة الحكام وظلمهم فكانت الشعوب تفتح للمسلمين صدورها ، وتتعاون معهم تعاونا كاملا يقول

مونت جمرى : (إن المسلمين كانوا يستقبلون فى كل مكان يصلون إليه بالترحاب باعتبارهم محررين للشعوب من العبودية وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة فزاد إيمان الشعوب بهم) .

دور الصوم فى الجهاد :

الصوم صلة وثيقة بين العبد وربه فقد فرضه الله تعالى ليصل المسلم الصائم إلى مرحلة التقوى التى تؤهله لأداء وظيفته فى هذه الحياة وهى عمارة الأرض طبقا لمنهج الخالق سبحانه وتعالى وفى رمضان تقوى مراقبة الله تعالى بالصوم وبقراءة القرآن وبصلاة القيام ، والصائم يجد الجزاء القريب فى اللفتة القرآنية التى تأتى بين آيتى الصوم فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ البقرة : ١٨٦ .

فهذه اللفتة موجهة إلى أعمال نفس المسلم الصائم ، والصائم المحتسب لا يجد فى نفسه اضطراباً ولا انزعاجا بل يكون راضيا محتسبا مطمئنا هادئاً .

والمسلم قبل أن ينطلق إلى الجهاد فى المعركة مع الأعداء يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر مع نفسه ، ومع الشيطان ومع المجتمع غير الملتزم ، ولم يكن من المصادفة أن يفرض الصوم فى العام الذى فرض فيه الجهاد فى سبيل الله لرد العدوان ونشر الإسلام ، فالصوم هو تقرير الإرادة العازمة ومجال اتصال المسلم بربه اتصال طاعة وانقياد ، والجندى الذى يؤخذ إلى ميدان المعركة بدون إعداد نفسى وعقلى وجسمى هو جندى فاشل ، ولذلك فإن صوم رمضان يعطى المسلم المجاهد فى سبيل الله دفعة معنوية قوية تجعله قادراً على أن ينتصر على أعدائه انتصارا واضحا فتكون هذه المعركة الرمضانية معركة فاصلة بين الحق والباطل ، تظهر الإسلام وتبطل الكفر .

ومن أهم المعارك الرمضانية الفاصلة فى تاريخ الإسلام :

(١) معركة بدر الكبرى وكانت فى العام الثانى من الهجرة .

(٢) فتح مكة وكانت فى العام الثامن من الجهرة .

(٣) فتح الأندلس وكان ذلك فى عام ٩٢ هـ .

(٤) معركة القادسية وكانت فى العام الخامس عشر للهجرة .

(٥) معركة ملازكرد وكانت فى ٤٦٣ هـ .

(٦) معركة الزلاقة وكانت فى ٤٧٩ هـ .

(٧) معركة حطين وكانت فى ٥٨٣ هـ .

(٨) معركة عين جالوت وكانت فى ٦٥٨ هـ .

(٩) معركة العاشر من رمضان وكانت فى عام ١٣٩٣ هـ .

غزوة بدر الكبرى فى العام الثانى للهجرة

علم النبى ﷺ أن عير قريش راجعة من الشام ومعها أربعون رجلا لحمايتها بقيادة أبى سفيان ، فندب المسلمين حتى يأخذوا العير ليكون فيها بعض العوض عما أخذه المشركون فى قريش من المسلمين المهاجرين إلى المدينة فندب الرسول المسلمين إليها وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فخف بعضهم استجابة لنداء النبى وثقل بعضهم لأنهم لم يتوقعوا قتالا ، وكانت حمولة العير نحو الف بعير ، وكان أبو سفيان يتجسس على أخبار النبى وأصحابه ويتعرف حركاتهم ، وكان يسأل من يلقى من الركبان حتى أصاب خبراً بأن النبى استنفر أصحابه للقاء أبى سفيان وغيره ، وقد أرسل أبو سفيان ضمضم الغفارى إلى قريش فذهب ضمضم وخرج فى بطن الوادى واقفاً على بعيره وقد جدع أنفه وحول رحله وشق قميصه ليستدعى الناس وينبههم إلى ما يقول ثم نادى : يا معشر قريش اللطيمة ، واللطيمة معناها الإبل التى تحمل الحرير وغيره فاستعدت قريش وخرجت للقتال ثم بلغهم أن أبا سفيان مال على طريق بدر ونجا بعيره ،ولكن قريشا استعدت للقتال حتى بعد أن بلغهم نجاة أبى سفيان بالعير.

خرجت قريش فى خمسين وتسعمائة مقاتل منها مائتا فارس يقودونها ، وأعداد كثيرة من الإبل ومعهم قيان يضربن بالدفوف وتغنين بهجاء المسلمين.

خروج رسول الله: خرج رسول الله بنحو تسعة وثلثمائة من المهاجرين والأنصار ليلقوا العير ولكنهم لم يدركوها بعد فرار أبى سفيان بها الذى جعل بدرا عن يساره والبحر عن يمينه وعرف النبى بأخبار قريش ورأى أنها الحرب لا محالة ـ واستشار النبى ﷺ أصحابه من المهاجرين فقالوا وأحسنوا القول ومنهم

المقداد بن عمرو الذى قال :

«يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن والله لانقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه فقال له رسول الله خيرا ودعا له ، وأراد النبى أن يطمئن إلى موقف الأنصار لأن العهد الذى بينهم وبينه لايلزمهم بالخروج إلى القتال خارج المدينة فقال: أشيروا على أيها الناس، فقال سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال : أجل فقال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت ونحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله .

وقد سر رسول الله بقول سعد وقال: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين العير أو النفير والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ، ولم يكن مع النبى إلا فرسان وأربعون بعيرا ـ فكانوا يتبادلون البعير كل أكثر من أربعة على بعير والنبى مثلهم وقد أرادوا إعفاء النبى من السير مثلهم فقال: لست أقل منكم قوة ولا أقل منكم طلبا للأجر ، وعندما رآهم المشركون استرهبوهم مع قلة عددهم وعدتهم ،ذلك لأن الجيش الإسلامى خرج للقتال استجابة لله ولرسوله وهو يريد إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة بينما المشركون يخافون من القتال ويترددون فهم لايحسون بأن الله معهم ولا يريدون فراق الحياة الدنيا ، بينما المؤمنون يرجون الشهادة ويستغيثون بالله تعالى والله يلقى فى نفوسهم الطمأنينة

ويمدهم بالملائكة وهم واثقون بنصر الله أو الشهادة وهما الفائزون فى كلتا الحالتين يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ الانفال ٩ ، ١٣ ثم يقول بعد ذلك ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

جيش المشركين:

وكان مع الجيش أعداد كبيرة من الجمال وكان قائدهم العام أبو جهل بن هشام وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش فكانوا ينحرون يوما تسعا ويوما عشرا من الإبل وقد خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله وتحركوا بسرعة فائقة إلى بدر، ولما وصلوا إلى الجحفة تلوا رسالة من أبى سفيان يقول لهم فيها (إنكم إنما خرجتم لتحموا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا) .

و قد هم جيش المشركين بالرجوع إلى مكة ولكن أباجهل قال فى كبرياء وغطرسة «والله لانرجع حتى نرد بدرا فنقيم بها ثلاثا ننحر الإبل ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف القيان لنا وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا، ورجع بنو زهرة .

ويلاحظ أن جيش المشركين كثير العدد والعدة ولكنه فاقد الإيمان على عكس جيش المسلمين الذى يحس بأن الله معه وقد أكرمهم الله تعالى إذ غشيهم النعاس أمنة منه وأنزل لهم المطر الضعيف ليلين لهم الأرض تحت أقدامهم واستبدلوا بطلب العير طلب العزة وقد أرادوا المال ابتداء ثم أرادوا إعلاء كلمة الله انتهاء .

وقد قدر الله تعالى الواحد من أهل الإيمان فى حال القوة التى لا ضعف فيها بعشرة من أهل الكفر فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ الآنفال ٦٥ .

وكان اختيار مكان المعركة بتوفيق من الله تعالى وقد نزل الرسول على أقرب ماء من بدر وعرض الأمر على الصحابة فجاء إليه الحباب بن المنذر بن الجموح وقال : يارسول الله أهذا المنزل أنزلكه الله تعالى ليس لنا أن نتقدم فيه أونتأخر؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال رسول الله: بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال : يارسول الله هذا ليس بمنزل امض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نعود ما وراءه ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون ، فأخذ النبى برأى الحباب وبنى الحوض على البئر التى اختارها وامتلأت ماء لأنه آل إليها كل ماء الآبار التى غورت .

وقد ابتدأت المناوشات برجل من بنى مخزوم ظن أنه يستطيع أن يهدم

الحوض الذى بناه المسلمون فقال :

«لأشربن من حوضهم أولأهدمنه أولأ قومن دونه» فخرج إليه أسد الله حمزة بن عبد المطلب فلما التقيا قطع حمزة بسيفه رجله إلى نصف ساقه ثم ساروا إلى الحوض فضربه حمزة حتى قتله .

ورأى رسول الله أن يكون فى مكان مرتفع ليشرف على حركة جنده فاتخذ له عريشا على موقع من الأرض فقال معاذ بن جبل يانبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يارسول الله ما نحن بأشد حباً لك منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناضحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه رسول الله ودعا له بخير ، وبنى له عريشا وكان يراقب حركة جنده، وعندما آتى الرسول جيش قريش تضرع إلى ربه قائلا : « اللهم هذه قريش أقبلت بخيلائها اللهم نصرك الذى وعدتنى اللهم أهلكهم الغداة» .

وكان أبو بكر مع رسول الله ومعاذ بن جبل فى فريق من الأنصار يطوفون حوله والرسول دائم الدعاء والضراعة إلى ربه يقول (اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعدها فى الأرض اللهم أنجز لى ما وعدتنى ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء من على منكبيه وجعل أبو بكر يسوى عليه رداؤه ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهال : «يارسول الله بعد مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك وكان النبى يقول لأصحابه «والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا إلا أدخله الله الجنة) .

نزول الملائكة :

وقد أغفى النبىﷺ إغفاءه قليلة ثم رفع رأسه وقال: أبشر يا أبا بكر أتانا نصر الله هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده ثم خرج من باب العريش وهو يثب فى الدرع ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر ثم أخذ بعض الحصباء واستقبل قريشا وقال، شاهت الوجوه ورمى بها في وجوههم فما كان من المشركين أحد إلا أصاب عينيه من الحصباء وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ الأنفال ١٧ .

وقد أصدر النبى ﷺ أوامره بالهجوم وقال : شدوا وحرضهم على القتال قائلا: والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ـ ثم قال : (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض فقام عمير بن الحمام وقال: بخ بخ فقال النبى :ما يحملك على قول بخ بخ؟ قال لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها .

فقال النبى فإنك من أهلها فأخرج عمير تمرات فجعل يأكل ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم أقبل على الجهاد وهو ينشد

ركضـــا إلى الله بغير زاد   الا التقى وعمـــل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد   وكـــل زاد عرضة النفاد

غـــير التقى والـبر والرشاد

فما زال يجاهد حتى قتل، ونزل النبى إلى الميدان يقاتل أشد القتال ومعه أصحابه فانكسرت قريش وصاح النبى وهو يرى نصر المسلمين (شاهت الوجوه لايرغم الله إلا هذه المعاطس)

القيادة الحكيمة :

أول مظاهر القيادة الحكيمة أن القائد كان فى وسط جنده فى القتال وكان يشرف عليهم ويوجههم ويشترك معهم روى عن على بن أبى طالب قال: كنا إذا اشتد الخطب وحمى الوطيس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله فما يكون أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقرب إلى العدو منا .

ومن مظاهر القيادة الحكيمة :

المساواة بينه وبين جنده فلقد كان يساوى بينه وبين جنده فى كل شئ من الحقوق والواجبات الحربية ، ومن مظاهر القيادة الحكيمة إشعار الجند بأنهم يعملون مختارين لا مجبرين وأنهم يطلبون الثواب من ربهم فإن انتصروا فذلك من فضل الله وان استشهدوا نالوا شرف الشهادة وجنة عرضها السموات والأرض ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ التوبة : ١١١ .

وكان رسول الله لينا مع جنده رحيما فى تعامله معهم فكانت القلوب مستجيبة لكل ما يطلب منها ، ومنها حرصه على جنده وإشفاقه عليهم فهم عصابة الله فإن هلكوا فلن يعبد فى الأرض .

ومنها إشراكهم معه فى تحمل التبعة بالشورى ويأخذ برأيهم وبذلك يحسون بالرسالة التى انتدبهم الله لها .

التنظيم :

معركة بدر هى أول معركة بين المسلمين والكفار ، ولذلك فإن تنظيم الجيش يعتبر من أهم عناصر المعركة اتباعا لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوص ﴾ الصف : ٤ .

وقد روى ابن اسحاق بسنده أن رسول الله عدل صفوف أصحابه وفى يده قدح يعدل به القوم فمر بسواد بن عزنة وهو متقدم الصف فوضع رسول الله القدح فى بطنه وقال له : استويا سواد ـ فقال يارسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى (أى مكنى من القصاص) ـ فكشف رسول الله ﷺ بطنه وقال : استقد ياسواد فاعتنقه سواد فقال رسول الله ما حملك على هذا يا سواد؟ قال سواد : يارسول الله حضرنا ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله بالخير .

وأصدر رسول الله أمره إلى الجيش ألا يحمل على العدو أحد إلا عندما يصدر لهم الأمر بذلك قال : إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل وجعل شعار الصحابة فى هذه الحرب (أحد أحد) . وقد جعل رسول الله على المهاجرين على بن أبى طالب وعلى الأنصار رجلا منهم سعد بن معاذ وذلك ليتنافس المتنافسون .

المعركة :

لقد ابتدء القتال بالمبارزة فخرج عتبة بن ربيعة ومعه أخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد يطلبون المبارزة فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ، فقالوا : مالنا بكم من حاجة نريد أكفاء من قومنا ثم نادى مناديهم : يامحمد أخرج إلينا أكفاءنا

من قومنا فاختار لهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وحمزة وعلى بن أبى طالب فلما رأوهم سألوهم عن أنفسهم وقالوا لهم : اكفاء كرام فتبارزوا وكان النصر للمؤمنين وقتل الكفار الثلاثة وبعد ذلك أخذ النبل يرمى من الجانبين ، وعندما رأى المشركون ذلك تجمعوا ، وعندئذ تقدم رسول الله ﷺ يأمر جيشه بأن يحمل على المشركين حملة رجل واحد وأخذ جعبة من تراب فاستقبل بها قريشا وقال : شاهت الوجوه فلم يكن أحد إلا أصيب منها ثم قال لأصحابه : شدوا فالتحم الجيشان والنبى ينظر من فوق العريش وهو يحس بأن الله تعالى أنجز وعده وهزم قريشا وحده وفى ذلك يقول الله تعالى :﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ الانفال : ١٧ .

وسعد بن عبادة ومعاذ قائمان على باب العريش متوشحين بسيفيهما فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ويخافون كرة قريش وقد أخذ جيش المسلمين فى قتل صناديد قريش الذين كانوا يفتنون الناس عن دينهم وقد اشتدت المنازلة بالمشركين وعلموا أن كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى وأن الله عزيز حكيم .

نهاية المعركة :

اقتربت المعركة من نهايتها وأخذت جموع المشركين فى الفرار والانسحاب، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمت هزيمة المشركين .

مصرع أبى جهل :

قال عبد الرحمن بن عوف : إنى لفى الصف يوم بدر إذ التفت فإذا عن

يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن فكأنى لم آمن مكانهما ، فقال لى أحدهما سرا من صاحبه : يا عم أرنى أبا جهل فقلت يا ابن اخى ما تنصنع به؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سواده سوادى حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك قال : وغمزنى الآخر فقال لى مثل ذلك فلم ألبث أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس فقلت : ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه قال : فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه،ثم انصرفا إلى رسول الله فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته قال: هل مسحتما سيفيكما؟ فقالا: لا فنظر رسول الله إلى الصبيين فقال:كلاكما قتله وأمر رسول الله بسلبه لمعاذ بن الجموح ومعوذ بن عفراء .

ومر عبد الله بن مسعود بالقتلى فوجد أبا جهل فيهم لا يزال به رمق فجثم على صدره يبغى الإجهاز عليه وتحرك أبو جهل يسأل لمن الدائرة ؟ فقال عبد الله : لله ورسوله ، ثم قال له : هل أخزاك الله ياعدو الله ؟ قال له : وبماذا أخزانى؟ وتفرس فى وجه عبد الله ثم قال له : ألست روعينا بمكة فجعل عبد الله يهوى عليه بسيفه حتى خمد .

نتائج المعركة :

كانت نتائج هذه المعركة بعيدة الأثر فى حياة المسلمين فزعما أن قريش قتلوا وكان عدد من قتل من المشركين سبعون وعدد من أسر سبعون .

وفى نهاية المعركة كان رسول الله حريصا على ان يعرف ما آل إليه ابو جهل الذى سمى فرعون هذه الأمة وقد اشترك عدد من المسلمين فى قتله لأنه كان محاطا بعدد من مشركى قريش وكان آخر من أجهز عليه عبد الله بن مسعود الذى جاء ولا زال به رمق فوضع رجله على عنقه ثم قال : أخزاك الله

ياعدو الله ثم حز رأسه وذهب بها إلى رسول الله وقد استشهد من المسلمين أربعة عشر ولم يؤسر من المسلمين أحد وبذلك تحقق معنى الآية الكريمة :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة : ١٤ ، ١٥ .

وقد دفن رسول الله قتلى بدر فى القليب وذلك ليوارى سوآتهم ويحمى أجسامهم من سباع البهائم والطير وبذلك حافظ النبى على كرامة الإنسان حتى ولو كان غير مسلم .

الأسرى :

استشار رسول الله أصحابه وقال لهم ما تقولون فى الأسرى قال أبو بكر : يارسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وقال عمر يارسول الله أخرجوك وعذبوك فاضرب أعناقهم .

استمع اليهم رسول الله كما استمع إلى غيرهم ثم تركهم ليتدبروا ما قيل ثم خرج عليهم وقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين وإن الله تعالى ليشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم إذا قال : فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ومثلك يا ابا بكر كمثل عيسى الذى قال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المائدة : ١١٨ .

وإن مثلك ياعمر كمثل نوح إذ قال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ نوح : ٢٦ .

وان مثلك ياعمر كمثل موسى إذ قال : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ يونس : ٨٨ .

وقد رأى رسول الله أن يأخذ بمبدأ الفداء إذ أن فيه نفعا لجماعة المسلمين .

وقد أخذ النبى الفداء من ذوى الثراء من بنى هاشم كما كان يقبل من الفداء نوعا معنويا وهو تعليم الأميين من أصحاب رسول الله وقد من رسول الله على عدد من الأسرى الذين كانت تصرفاتهم فى مكة سليمة ازاء المسلمين ، أو كانوا عاجزين عن الفداء .

ومن طريف ما يذكر أن مصعب بن عمير بعد انتهاء المعركة مر بأخيه ابن عزير الذى خاض المعركة ضد المسلمين وأسر مر به وأحد الأنصار يشد يده فقال مصعب للأنصارى : شد يديك عليه فان أمه ذات متاع لعلها تفديك منه فقال أبو عزير لأخيه مصعب : أهذه وصاتك بأخيك ؟ قال : انه اخى دونك ، وقد نزل القرآن الكريم يبين خطأ المسلمين فى أخذهم الفداء من الأسرى فهم بذلك يتيحون الفرصة لهم أن يحاربوا المسلمين مرة أخرى فنزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الانفال : ٦٧ .

الأنفـــال :

أول غنيمة غنمها المسلمون من الكفار كانت بعد معركة بدر .

وكانت قسمة الغنائم على حسب أوامر الله تعالى فالخمس لله ولرسوله ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والباقى للمسلمين الذين قاتلوا وانتصروا يقول الله تعالى فى ذلك : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ الانفال : ٤١ .

آثار معركة بدر :

كانت آثار معركة بدر فى العرب كبيرة بعيدة المدى، وكان هذا النصر منبها للعرب بحقيقة الدعوة الإسلامية وسلامتها وقوتها وبذلك صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى وسمى يوم النصر يوم الفرقان إذا انتقل المسلمين من مستضعفين فى الأرض إلى أقوياء يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾ الانفال: ٢٦ .

وأصبح العرب ينظرون إلى الإسلام على أنه القوة الحقيقة فى البلاد العربية وأخذ الناس يفكرون فى الدخول فى الإسلام ، وفى المدينة وما حولها صار الإسلام هو القوة المرهوبة ، وظهر النفاق فى المدينة من الأوس والخزرج واليهود الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ليكيدوا للإسلام على قدر استطاعتهم ولم يكن هذا موجودا إلا بعد نصر المسلمين فى بدر ونزلت سورة المنافقون تبين حقيقتهم وتنبه المسلمين إلى خطورتهم .

وفى رمضان من عام معركة بدر فرض صيام رمضان وزكاة الفطر وكان عيد الفطر فى هذا العام أول عيد للمسلمين .

مكة تتلقى نبأ الهزيمة :

تلقت مكة نبأ هزيمة المشركين فى معركة بدر باستنكار وتعجب فلما استبان لهم صدق الهزيمة صعق نفر منهم فهلك لتوه وقد جوبهوا بعار الهزيمة ويهود المدينة ومشركوها كذبوا الخبر . وقد انطوى أهل مكة على أنفسهم يداوون جراحهم ويعلنون أن يوم الإنتقام قريب ولم تزدهم الهزيمة إلا كرهاً للإسلام ونقمة على محمد وأصحابه .

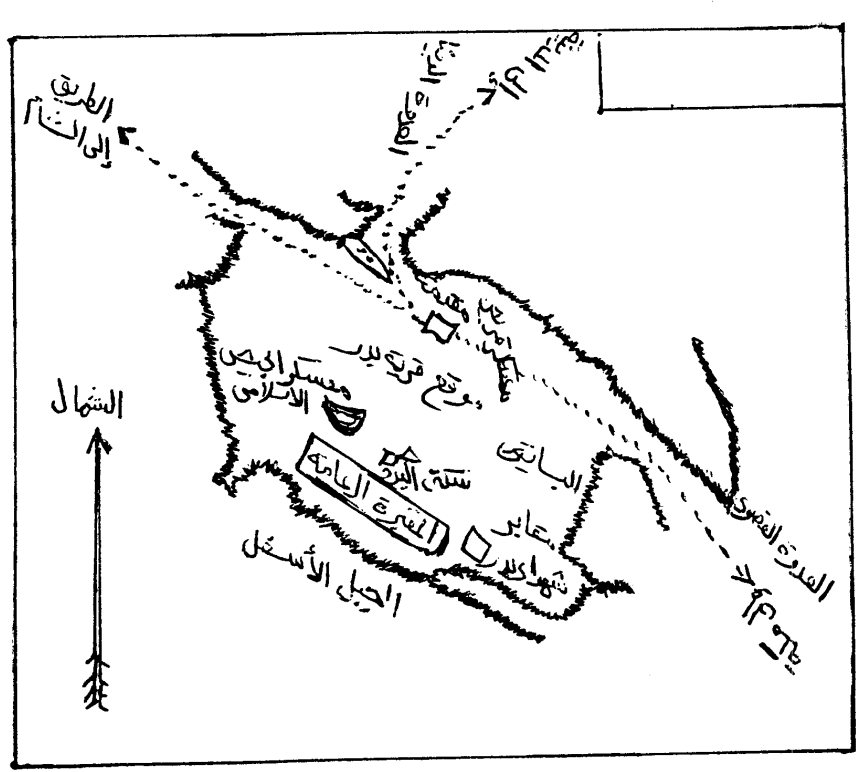
المدينة تتلقى أنباء النصر :

ولما تم النصر للمسلمين ارسل رسول الله بشيرين إلى أهل المدينة أرسل عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية وارسل زيد بن حارثة بشيرا إلى أهل السافلة.

وقد أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة ايام ، ثم تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسرى من المشركين ولما وصل إلى الروحاء لقيه رؤوس المسلمين وقال له أسيد بن الحضير : يارسول الله الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك والله يارسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن انك تلقى عدوا ولكنى ظننت انها عير ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت ، فقال له رسول الله : صدقت ثم دخل المدينة مظفرا منصورا فأسلم عدد كبير من المشركين وقدم الأسارى بعد بلوغ الرسول المدينة بيوم فقسمهم على أصحابه وأوصى بهم خيرا فكان والصحابة يأكلون التمر ، ويعطون لاسراهم الخير علما بنصيحة رسول الله ، وفى فرحة المسلمين ، وبانتصارهم فى بدر نزل اليهود إلى رسول الله يقولون له : لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم ، أما والله لئن حاربناك لعلمت اننا نحن الناس ، ونزل الوحى على رسول الله ينذر اليهود بسوء الخاتمة فقال : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ آل عمران : ١٢ الآية تذكير بما وقع فى بدر .

وهكذا انتهت غزوة بدر بنصر المؤمنين على الكافرين وكانت عبرة لمن يعتبر وجعلت المسلمين يعلمون أن الله ناصرهم ماداموا ناصرين لدينه

وأساس النصر يكون بالصلة القوية بالخالق سبحانه وتعالى وبالاستعداد الكامل حسب القوة التى فى ايديهم وصدق الله تعالى القائل ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ محمد : ٧.



غزوة بدر

فتح مكة فى العام الثامن من الهجرة

تمهيد :

ربى النبى صلوات الله وسلامه عليه من أسلم فى مكة تربية إسلامية متكاملة حتى حققوا معنى الآية الكريمة : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ الإنعام / ١٦٢ : ١٦٣ وفى الوقت نفسه فاضت كأس قريش ظلما وعدوانا وجحدوا بالحق وصدا عن سبيل الله بكل الأساليب حتى التى تنكره عادت العرب فى الجاهلية ومن بقى من دين إبراهيم عليه السلام فى حرمة مكة وحرمة الاعتداء على من سكنها وصدهم عنها من يريد أن يدخلها معتمراً واخيرا نقض العهد والاعتداء بالقتل والمطاردة على خزاعة التى دخدلت فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى ان ينهى هذا الظلم الذى لا يريد أن يقف عند حد وأن يدخل رسوله والمسلمين مكة فاتحين وأن يطهر بيته من الرجس من الأوثان ومن قول الزور وأن يعيد إلى مكة مكانتها الأولى فتعود مثابة للناس وأمنا . ويصبح البيت كما كان مباركا وهدى للعالمين .

لذلك هيأ الله سبحانه وتعالى الأسباب حيث دعت قريش إليها وذلك أن معاهدة الحديبية كان فى أحد بنودها أن من دخل فى عهد قريش وعقدها دخل فيه ومن دخل فى عهد محمد وعقده دخل فيه . فدخلت بنو بكر عقد قريش ودخلت خزاعة فى عقد النبى عليه الصلاة والسلام .واستمر الوضع على

هذا سبعة عشر شهرا ، ثم بدأت بنو بكر تفكر فى الاعتداء على خزاعة أخذا بثأر قديم كان لهم عليها ، وكلمت أشراف قريش أن يعينوها بالرجال والسلاح على خزاعة فأمدوهم بذلك .

نقض العهد :

خرج نفر من قريش متنكرين : « خوف أن يبلغ رسول الله أنهم نقضوا العهد والهدنة » وأجلسوا معهم ارقاءهم فأغاروا مع بنى بكر على خزاعة لبلادهم وهم آمنون وقتلوا منهم ثلاثة وعشرين وذلك على ماء قريب من مكة يقال له الوتير ، وكان عامة القتلى من النساء والصبيان وضعفة الرجال ، حتى أدخلوهم الحرم .

فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر لنوفل بن معاوية الديلمى ، وكان يومئذ قائدهم يانوفل : إنا دخلنا الحرم الهك الهك ، فقال كلمة عظيمة : (لا إله له اليوم) ثم قال : يابنى بكر اصبوا ثأركم فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم افلا تصيبون ثأركم فيه ؟ وهكذا فهم لم يرعوا حرمة البيت ولا حرمة من فيه مع الافحاش فى القول حتى مع الله سبحانه وتعالى .

وفد خزاعة فى المدينة :

وهال الأمر خزاعة فلم يجدوا بداً من الالتجاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة فخرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين رجلا حتى قدم على رسول الله المدينة فوقفوا عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى أصحابه وانشد ابياتا تدل على مدى تأثره بما أصاب قومه وقد جاء فيها :

إن قريشا أخلفوك الموعـــــدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكـــــدا

هم بينونا بالوتير سجـــــدا ... وقتلونا ركعاً وسجــــــداً

فقال عليه الصلاة والسلام : نصرت ياعمرو بن سالم ، لانصرت ان لم انصر بنى كعب مما نصرت منه نفسى ، ومع ذلك فقد أراد عليه الصلاة والسلام ان يستوثق من الخبر ويعذر إلى قريش فبعث إليهم رجلا يخبرهم بين إحدى ثلاث خلال ، بين أن يدفعوا دية قتلى خزاعة ، أو يبرءوا من حلف من تولى كبر هذا النقض أو ينبذ اليهم على سواء فأجابه قرطة بن عمرو أحد زعماء قريش لكن ننبذ اليهم على سواء ، وبذلك برئت ذمة قريش : وقامت عليهم الحجة .

عندئذ لم يشك أهل مكة فى أنهم سوف ينالون جزاء غدرهم فبعثوا بأبى سفيان إلى المدينة عله يستطيع أن يفعل شيئا لقريش عن طريق الاعتذار أو تجديد المعاهدة ومدها لكن الأمر كان أخطر من ذلك بكثير ، فماضيهم مملوء بالشر والظلم وحاضرهم مملوء بالقتل والطغيان ولذلك فلن يرجى منهم خير فى المستقبل فلتطو هذه الصفحة وليفتح الله مكة على المؤمنين ولنفتح صفحة جديدة فى تاريخ الإسلام والمسلمين . ولذلك فقد عاد ابو سفيان بخفى حنين .

الاستعداد لفتح مكة :

حين عزم النبى عليه الصلاة والسلام على فتح مكة أرسل إلى أهل البادية وإلى من حوله من المسلمين يقول : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة وبعث رسلا فى كل ناحية حتى قدموا .

فى اليوم العاشر من رمضان خرج النبى عليه الصلاة والسلام من المدينة قاصدا مكة بعد أن استخلف على المدينة ابا ذر الغفارى وقد انضم اليه فى الطريق الكثير من القبائل فبلغ عدد الرجال عشرة آلاف .

هذا القائد العظيم الذى يقود عشرة آلاف جندى وهو ذاهب لفتح مكة يلفت نظره بعد مسيرة يوم من العرج كلبة تهر على أولادها وهن حولها

يرضعن فيأمر جعيل بن سراقة ان يقوم حذاءها لا يعترض لها أحد من الجيش ولا لاولادها إنه النبى الذى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين فتعم رحمته الإنس والجن والحيوان والجماد .

وواصل النبى عليه الصلاة والسلام الصيام حتى وصل بئر الكديد فى وضح النهار ، فخشى النبى عليه الصلاة والسلام أن يشق العطش والتعب الشديد على جنوده فيعيقهم عن أداء مهمتهم ، فدعا باناء به ماء واشرف على الناس من فوق ناقته العالية وشرب جرعة على مشهد من الجند ليريهم أن الأفضل الافطار فى مثل هذه الظروف ، ثم بلغه أن قوما استمروا فى صيامهم فقال عليه الصلاة والسلام : اولئك هم العصاة وبين السبب فى ذلك فقال : إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم .

لقد افطر النبى عليه الصلاة والسلام ليكون قدوة للمسلمين فى ذلك ـ ففى وقت الحرب يصبح الإفطار عبادة أكثر من الصيام ـ فلما بلغه ان بعض المسلمين لم يقتد به وهم مقدمون على معركة ، بين لهم أنهم عصاة بصوم هذا اليوم لأنهم لن يتمكنوا من أداء واجبهم القتالى وهم صيام .

وحث الرسول عليه الصلاة والسلام جنده على الإسراع فى السير ، فوصل إلى مر الظهران على أبواب مكة قبل أن يعرف القرشيون شيئا عن قوة المسلمين وعن اخبار سيرهم .

دخول مسالم :

لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام حريصا على أن يدخل مكة بغير قتال ووضع الخطة على هذا الأساس وأمر أصحابه أن يتفرقوا فى مداخل مكة فلا يدخلوها من مدخل واحد وبذلك يفوتون فرصة القتال على اهل مكة لو ارادوا ذلك ، إذ انهم مضطرون حينئذ إلى تشتيت جماعاتهم وتشتيت قواهم فى

جهات مكة فتضعف بذلك المقاومة ومغرياتها ، وبذلك تحقن الدماء وتحفظ السلامة والامن فى البلد الحرام ، ومن أجل هذا أمر ألا يقاتل المسلمون إلا من قاتلهم وأعلن أن من اغلق عليه داره فهو آمن ، وقد أسند إلى الزبير بن العوام دخول مكة من طريق « كدى » وهو جبل بأسفل مكة وإلى خالد بن الوليد مهمة دخول مكة من أسفلها وإلى ابى عبيدة مهمة دخول مكة من طريق الضواحى الشرقية وإلى سعد بن عبادة مهمة دخول مكة من طريق كداء وهو جبل بأعلى مكة .

وقد اخذت نشوة الموقف سعد بن عبادة فقال : اليوم يوم الملحمة اليوم أذل الله قريشا وحين بلغ ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : كذب سعد ، اليوم يوم المرحمة اليوم يوم تعظم فيه الكعبة اليوم أعز الله قريشا وأمر بنزع الراية من سعد واعطائها لابنه قيس .

ودخل المسلمون من كل جانب ولم يلقوا مقاومة ، اللهم إلا خالد بن الوليد الذى استقبله وابل من السهام وقع فى جنده فأصاب الكثير منهم ـ وكان ذلك من عمل صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل الذين دبرا الكمين وراء صخور جبل خندمة ، فهجم خالد برجاله على المكان الذى تحصن فيه الاعداء فبث فيهم الرعب وشتت شملهم وقتل منهم اثنى عشر ـ ثم انهزموا فدخل حماس بن قيس على امرأته ـ وكان حماس قد أعد سلاحا لقتال المسلمين فقالت له امرأته : والله ما اداه يقوم لمحمد واصحابه شئ قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم ، فقال حماس أغلقى علىّ بابى فقالت له: واين ما كنت تقول ؟ فأنشد :

إنك لو شهدت يوم الخندمـــة

إذ فر صفوان وفر عكرمـــــــة

وأبو يزيد قائم كالموتمـــــه

واستقبتهم بالسيوف المسلمـــــه

يقطعن كل ساعد وجمجمه

ضربا فلا يسمع إلا غمغمـــه

لهم نهيت خلقنا وهمهمـــه

لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه

ووصل النبى عليه الصلاة والسلام إلى جبل الحجون فرأى لمعان السيوف والرماح ، فغضب وبعث إلى خالد بن الوليد برجل من الأنصار ، فلما جاء خالد عنفه على أن قال وقد نهاه عن ذلك نهيا شديدا فأجابه خالد : إنهم يارسول الله بدءونا بالقتال ورمونا بالنبال ووضعوا فينا السلاح وقد كففت ما استطعت ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا فقاتلتهم وأظفرنا الله عليهم فهربوا من كل وجه فقال عليه الصلاة والسلام : قضى الله أمرا .

ازالة أثار الجاهلية :

وبعد أن هدأ الموقف ودخل المسلمون إلى مكة اعتجر الرسول عليه الصلاة والسلام عمامة سوداء ووشاحا مخططا على رأسه ، وترك طرفاه ترفل بين كتفية ثم يمم شطر الكعبة للطواف مبتدئاً بالحجر الاسود ، ثم نزل عند راحلة ليغشى البيت ولكنه تراجع إذ أبصر بالأصنام التى تحيط بالكعبة ، وصاح أمام لوحة تصور ابراهيم عليه السلام ممسكا بالازلام : « قاتلهم الله حيث جعلوه شيخا يستقسم بالازلام ، والله ما استقسم بها قط » وأمر بالصور فمحيت .

واتجه إلى الأصنام المحيطة بالحرم وكان عددها ثلاثمائة وستين فبدأ بالصنم الأكبر هبل وجعل يضرب فى عينيه قائلا : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا فخر الصنم لوجهه مهشما وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يطوف بالأصنام فيهشمها واحدا واحدا حتى لم يبق قائم إلا صنم بنى خزاعة المصنوع من نحاس وصدف وكان منصوبا على سطح الحرم فقال الرسول عليه الصلاة والسلام لعلى : اجلس فجلس علىٌ فصعد رسول الله على منكبيه ، ثم قال له انهض فأحس على بحمل فوق طاقة البشر فلم يستطع فنزل ورفع النبى عليه الصلاة والسلام عليا قال على : فلما نهض بى وصعدت فوق ظهر الكعبة خيل إلى حين نهض بى « صعد » انى لو شئت لنلت فوق السماء ، وكان الصنم مؤيدا بأوتاد من حديد وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يقول إيه إيه جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، فتمكنت من الصنم فقذفته فتكسر ، ثم بعث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التى كانت حول الكعبة فكسرت كلها ونادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره وبعث رجلا من أصحابه إلى القبائل فهدموا أصنامها.

يالله لقد كانت هذه الحجارة منذ هنيهه آلهة مقدسة ولكنها الآن أنقاض بعد أن هدمها نبى التوحيد . الذى دار فى البيت وكبر فى نواحيه ووحد الله، ثم فتح الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينظرون ماذا يصنع بهم ؟ فأخذ بعضادتى الباب وهم تحته فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

خطبة النبى عليه الصلاة والسلام :

توجه أهل مكة فى اليوم التالى إلى الصفا حيث دعاهم النبى عليه الصلاة

والسلام ليأخد عليهم العهد والميثاق ، ومما يلفت النظر أن أهل مكة لم تكن تبدو عليهم أمارات الخزى التى تبدو عادة على المنهزمين ، فقد اطمأنوا إلى النبى عليه الصلاة والسلام الذى وصفه رب العزة بأنه رؤوف رحيم ، واستمعوا إلى خطبته التى قال فيها : « الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وحزم الاحزاب وحده ، ألا وإن كل ثأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا فيه الدية مغلظة مائة من الأبل أربعون منها فى بطون امهاتها ثم قال : يامعشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بآبائها ، الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ الحجرات : ١٣ ، ألا وان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام بحرام الله لم تحل لأحد كان قبلى ولا تحل لأحد كان بعدى ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ، ألا لاينفر صيدها ولا يعضد (يقطع) عضاهها (شجر له شوك) ولا تحل لقيطتها إلا لمنشد ولا يختلى خلاها (يقطع حشيشها) فقال العباس : إلا الإذخر يارسول الله فإنه لابد منه للقبور وظهور البيوت فسكت ساعة ثم قال : إلا الإذخر فإنه حلال .

ولا وصية لوارث وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر . ولا يحل لامرأة تعطى من مال زوجها إلا بإذن زوجها ، والمسلم أخو المسلم والمسلمون أخوة ، والمسلمون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم ويرد عليهم أقصاهم ويعقد عليهم أدناهم ، ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ولا تنكح امرأة على عمتها أو خالتها والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى رحم محرم .

ثم قال : يامعشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم قالوا خير أخ كريم وابن أخ كريم قال فإنى أقول لكم كما قال يوسف لاخوته : لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء ثم قال : أين عثمان بن طلحة فدعى له فقال : هذا مفتاحك ياعثمان اليوم يوم بر ووفاء وجاء الظهر :

فأمر بلالا أن يصعد فوق الكعبة فيؤذن ، وكانت قريش فوق رؤوس الجبال وقد تغيرت وجوههم وتعبوا وتغيبوا خوف أن يقتلوا ، فلما أذن بلال ورفع صوته كأشد ما يكون وقال : أشهد أن محمدا رسول الله قالت جويرة بنت أبى جهل: قد لعمرى لقد رفع لك ذكرك اما الصلاة فسنصلى ، والله لا نحب من قتل الأحبة أبدا ، وقال خالد بن الأسيد : الحمد لله الذى أكرم أبى فلم يسمع هذا اليوم وقال الحارث بن هشام : واثكلاه ليتنى مت قبل هذا اليوم قبل أن أسمع بلالا ينهق فوق الكعبة . وقال الحكم بن أبى العاص : هذا والله الحدث العظيم أن يصبح عبد بنى جمح على بنية ابى طلحة . وقال سهيل بن عمرو : إن كان هذا سخطا لله فسيغيره وان كان لله فيه رضا فسيقره وقال ابو سفيان بن حرب أما أنا فلا أقول شيئا لو قلت شيئاً لأخبرته هذه الحصباء ، فأتى جبريل عليه السلام فأخبره خبرهم .

ثم دخل دار أم هانئ فاغتسل وصلى صلاة الفتح ثمانى ركعات وكان أمراء المسلمين من بعده يقتدون به فى ذلك فإذا فتحوا بلدا صلوا هذه الصلاة - ثم لبس السلاح ومغفرا من حديد ثم ركب القصواء ومر وابو بكر معه على الناس وعبد الله بن أم مكتوم بين يديه يقول :

ياحبذا مكـــة من وادى

أرض بها أهـــلى وعوادى

أرض بها أنسى بلا هـادى

أرض بها ترســخ أوتـادى

حتى انتهى إلى الكعبة فتقدم على راحلته فاستلم الركن وكبر فكبر المسلمون لتكبيره وحتى ارتجت مكة فأشار اليهم أن اسكتوا والمشركون فوق الجبل ينظرون ثم طاف ومحمد ابن مسلم أخذ بزمامها .

ثم اجتمعت قريش لمبايعته فجلس على الصفا وجلس عمر بن الخطاب أسفل مجلسه يأخذ على الناس فيبايعون على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، ثم قال : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية .

غسل الكعبة :

ثم تجرد رجل من الأزد ثم أخذوا الدلو فغسلوا الكعبة وبطنها حتى انبعج الوادى بالماء فلم يدعوا فيه صورة ولا أثرا من آثار المشركين إلا محوه وكان عليه الصلاة والسلام لما جلس ناحية من المسجد توضأ بسجل من زمزم قريبا من المقام والمسلمون يبادرون وضوءه يضعونه على وجوههم ، والمشركون يومئذ متعجبون ويقولون : ما رأينا ملكا قط يبلغ هذا ولا شبيها به .

أثر فتح مكة :

كان لفتح مكة أثر عميق فى نفوس العرب فشرح الله صدر كثير منهم للإسلام وصاروا يدخلون فيه أفواجا ، وكانت عدة قبائل بينها وبين قريش حلف وكانت ممتنعة عن الدخول فى الإسلام لمكانة هذا الحلف وكانت قبائل ترهب قريشا وتجلها فلما رأتهم استسلموا للإسلام ورغبوا فيه وزال الحاجز وكانت قبائل تعتبر مكة ولا يفتحها أحد ولا يدخلها ملك جبار أو من يريد لها سواء إلا أهلك ، ولا يزال فيها من عاصر حادثه الفيل وشاهد ما فُعل بأبرهة فيقولون اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق .

فلما فتح الله مكة لنبيه ، خضعت قريش للإسلام طوعا أو كرها وأقبل العربى على الإسلام إقبالا لم يعرف قبل ذلك وصاروا يدخلون فى دين الله أفواجا وصدق الله العظيم القائل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْح ﴾ سورة النصر .

الأنصار يخافون :

ظن الأنصار الذين آووا الرسول عليه السلام ونصروه إن مهمتهم قد انتهت وقالوا : فتح الله مكة على رسوله عليه الصلاة والسلام وهى بلده وموطنه جال ذلك فى نفوسهم وتحدثوا به فيما بينهم ثم قالوا : أترون رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم فيها ؟ فلما تم فتح مكة قال لهم رسول الله ﷺ معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم « وفى مكان آخر يقول : لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار » .

لقد أقام النبى عليه الصلاة والسلام نحو التسعة أو عشرة يوما فى مكة ومع ذلك فقد اعتبر نفسه غريبا مسافرا وكان يقصر من الصلاة وكان يقول بعد تمام الركعتين : يا أهل البلد صلوا أربعا فإنا سفر » .

وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام على مكة قبل أن يغادرها عاب بن أسيد يدبر أمورها ويقيم الموسم والحج بالمسلمين وسنه عشرون سنة بمحضر من أهل الأسنان والفضل ـ فدل ذلك على أن المناصب تقوم على الجدارة والقوة ، لا على العلم أو السن أو الجاه أو المال ولم ينكر أحد من الصحابة هذا العمل .

خاتمة :

بالأمس خرج النبى عليه الصلاة والسلام من موطنه وأحب بلاد الله إليه من مكة مستخفيا فى بطون الجبال والوديان مهاجرا إلى يثرب وقد سبقه إلى الهجرة إليها ولحق به أصحابه وهم قلة مستضعفة ، خرجوا متسللين بدينهم تاركين المال والأهل والوطن ، نعم كان ذلك بالأمس .

أما اليوم فهاهم أولاء يعودون إلى وطنهم وأهلهم ومالهم وقد كثروا من قلة وتقووا بعد ضعف واستقبلهم أولئك الذين أخرجوهم بالأمس خاشعين أذلاء خاضعين خائفين .

وبلال العبد الحبشى الذى طالما عذب فى رمضاء مكة على أيدى المشركين، يصعد اليوم على الكعبة المشرفة ينادى بأعلى صوته : الله أكبر ، الله أكبر .

نعم بالأمس كان يهمس وهو تحت أسواط العذاب أحد أحد ، واليوم يجلجل فوق بيت الله الحرام : لا إله إلا الله محمد رسول الله والكل خاشع ومنصت .

وبعد انتصار المسلمين وفتح مكة ألقى الرسول صلوات الله وسلامه عليه خطبة ، ترى ما الذى يشغل بال هذا الفاتح العظيم وما الذى يقوله فى هذه الخطبة ، نعم إنه الفاتح العظيم ولكنه أيضا رسول الله صاحب الرسالة ولا يشغل باله شئ إلا أداء هذه الرسالة وحتى وقت الفتح الأكبر لم يشعر بشئ من الزهو والغرور بل إنه هو محمد رسول الله ، يلقى خطبة يضع فيها الأسس الإسلامية فى العقيدة والتشريع والأخلاق التى يحتاج إليها الناس فى جميع العصور وفى جميع البلاد ، ولم يحدث فى التاريخ البشرى أن خطب فاتح مثل هذه الخطبة التى تخلو من التعاظم والتى تضع أسس المجتمع السليم ، ولكنه محمد رسول الله الذى أرسله الله تعالى لإنقاذ البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور .

إن محمدا صلوات الله عليه دخل مكة دخول الرسول الذى يريد أن يفتح القلوب لنور الإيمان ، فهو ليس ملكا يبغى شهرة ، ولا طاغية يبغى سيطرة ، لقد أرسله الله رحمة للعالمين ومن هنا فلم يكن فى مشاعره إلا المودة ولم يكن فى ألفاظه إلا الرقة .

دخل رسول الله عليه الصلاة والسلام مكة دخول خاشع متواضع لا دخول فاتح متعال ، دخل خافضا رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه لتكاد تمس واسطة الرحل ، دخل مكة وهو يقرأ سورة الفتح ، وفى دخوله مكة فاتحا ، وهى قلب الجزيرة العربية ومركزها الروحى والسياسى رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة والتواضع والخضوع .

أو ليس مما يلفت النظر أن يردف خلفه أسامة بن زيد وهو ابن مولاه ، ولم يردف أحداًمن أبناء هاشم أو أشراف قريش .

إنها العبودية المطلقة لله تعالى فى السراء والضراء .

وما أشد حاجتنا فى بداية القرن الخامس عشر إلى أن ندرس هذه الغزوة دراسة واعية لنأخذ عنها الدروس التى تفيدنا فى مستقبلنا نحو الدعوة إلى الله تعالى لننقذ أنفسنا مما نحن فيه وننقذ هذا العالم المضطرب الحائر .

موقعة القادسية
رمضان سنة ١٥ هـ

تمهيد :

من المعارك الإسلامية ما يضع بصماته على سطح الكرة الأرضية فتبقى آثارها على مدى التاريخ ومعركة القادسية من المعارك الرمضانية الفاصلة فى التاريخ فهى التى كانت سببا فى فتح أبواب العراق وفارس أمام المسلمين ثم تبعها السقوط الساسانى من الناحيتين السياسية والحربية والسقوط المجوسى من الناحية الدينية ، ومن هنا انساح الدين الإسلامى فى العالم شرقاً وغرباً .

وقد تميز الفرس بكثرة العدد وأفضليات السلاح ونوعيته إلى جانب سلاح الفيلة الرهيب الذى لم يكن لدى المسلمين شىء منه ، وإلى جانب درجة الكفاية البالغة فى الحرب والقتال قرب ديارهم .

لقد كان هدف المسلمين فى هذه المعركة تحطيم الجيش الضخم لامبراطورية الفرس ـ فإذا تم ذلك دانت الدولة وانفتحت البلاد أمام المسلمين .

قائد المعركة : كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يريد أن يقود المعركة ، ولكن الصحابة رأوا أن يبعث غيره فذلك لمصلحة المسلمين فاختار سعد بن أبى وقاص ، وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله فى مغازيه ، وان رسول الله يعتز به ويقول فيه (هذا خالى فليرنى أمرؤ خاله) وفى غزوة بدر قال له : ارم أيها

الفتى فداك ابى وأمى .

ثم أرسل عمر إلى سعد فقدم عليه فأمره على حرب العراق وأوصاه قائلاً (ياسعد لا يغرنك أن قيل أنك خال رسول الله فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب ولا صلة إلاطاعتة .

وقال لسعد : إنى قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص فيه إلا الحق فعود نفسك ومن معك على الخير واستفتح به واعلم ان لكل عدة عتادا فعتاد الخبر الصبر فالصبر الصبر على ما أصابك واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته وفى اجتناب معصيته وانما أطاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة وإنما عصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الاخرة وقال لمن معه : ان الله قد الزمنى رفع الدعاء عنه فانهوا شكواكم الينا فمن لم يستطع يأتى الينا من يبلغناها فآخذ الحق له غير منقوص ثم امر سعد بالسير وقال له :(إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها وتفرقوا فيها وحولها واندب من حولك منهم وانتخب أهل النجدة والرأى والقوة والعدة) .

خرج سعد من المدينة قاصداً العراق فى أربعة آلاف ثم جاءت إليه امدادات أخرى الفا يمانى والفا نجدى وجميع من شهد القادسية من المسلمين كانوا بضعة وثلاثين الفا منهم بضعة وسبعون ممن شهدوا بدرا وثلثمائة ممن شهدوا فتح مكة وسبعمائة من ابناء الصحابة فى جميع أحياء العرب .وكتب عمر إلى ابى عبيدة بن الجراح بالاسم يأمره بإرسال جنود من العراق فأرسل إليه ستة الاف ومن أراد أن يلحق بهم ـ وسار سعد بالجيش عن طريق مدينة الحيرة

مجتازا أرض نجد حتى نزل على زرود على مسافة ٥٨٥ كيلو متر من المدينة ـ ثم أمده عمر بن الخطاب بأربعة آلاف أخرى .

وكان المثنى بن حارثة فى شراف ينتظر قدوم سعد وكان معه ١٢ ألفا ولكن المنية وافته قبل أن يلتقى بسعد وكتب عمر إلى سعد أما بعد فإنى آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى العدة فى الحرب واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم أسأل الله لنا ولكم وتلقى سعد وصية كتبها المثنى تتضمن خلاصة تجارية فى حرب العراق قال فيها .(لا يقاتل عدوه وعدو المسلمين من أهل فارس إذا اجتمع أمرهم وتلقوهم فى عقر دارهم ـ وإنما يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءه وان تكن الأخرى رجعوا .

نزول حملة القادسية : أخرج سعد المقدمة مع زهرة بن الجدية من أشراف حتى نزل عذيب الهجانات ثم ارتحل ونزل زهرة القادسية وشكل سرية وبعثها فى جوف الليل لتنشر الغارات على الأعداء واستولى على بعض الأموال ثم عاد بعد ذلك حتى إذا طلعوا على سعد بعذيب كبروا تكبيرة شديدة فقال لهم سعد أقسم بالله لقد كبرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العزة وقسم سعد تلك الغنيمة وأعطى المجاهدين أربعة أخماس والباق على المحتاجين والفقراء وأنزل سعد نساء المسلمين بالعذيب ووسع معها أخيلا تراها وتحميها وأمر عليهم غالب الليثى ثم ارتحل سعد حتى نزل القادسية فنزل (بقديس) حصن القادسية ونزل زهرة بالمقدمة .

وجاء إلى سعد كتاب من عمر يقول فيه (أما بعد فلتجاهد قلبك لتجاهد جندك بالموعظة) الحسنة والنية الحسنة والصبر فإن المعركة تأتى على قدر النية والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله واسألوا الله العافية وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله واكتب لى واجعلنى من أمركم على جلوة وخف الله وارجه) .

فكتب سعد إليه يقول : إن القادسية بين الخندق والعتيق ووصف له الموقع. وكان سعد يبعث بالسرايا لاستنزاف قوة الفرس وقد أثرت حرب الاستنزاف تأثيرا ماديا ونفسيا على المواطنين فطلبوا من يزدجر أن ينقذهم فأرسل اليهم رستم .

رستم : كان رستم أميرا على خراسان ثم عين قائدا لمعركة القادسية وقال يزدجر : أنت رجل أهل فارس اليوم وقد نرى ما جاء أهل فارس من أمركم بانه هم مثله فقال رستم : إن الأناة فى الحرب خير من العجلة .

خطة القادسية : قامت خطة القادسية على أساس اختيار محدد على الحدود الطبيعية من الصحراء وبين الشبكة المعقدة للمسالك والمسطحات المائية تجنبا للتورط فى القتال على أرض هذه المواقع وحفظ خط الرجعة لجيش المسلمين إذا ما كانت نتيجة المعركة على غير ما يرجون وأن تكون المعركة التى تدور على هذه الأرض بعد استدراج الفرس إليها كبيرة وحاسمة تقضى على قوتهم المادية والمعنوية .

وقد أقام سعد بالقادسية زمنا ينتظر المجوس أن يوجهوا إليه قواتهم وهم لا يفعلون فبعث عيونه إلى أهل الحيرة وغيرها فرجعت إليه العيون بأن يزدجر قد ولى رستم الأرمنى قيادة حرب المسلمين وأنه أمره أن يعسكر بجنوده وأخذ سعد

يبعث بالسرايا فشنت الغارات وذلك للإغاثة والتموين لجيش المسلمين فى الميدان وشن حرب الاستنزاف على الفرس حتى يخرجوا لملاقاته ، وكثرت الشكاوى إلى يزدجر فأرسل يزدجر إلى رستم أن يأتى إليه فجاء ودخل عليه وتناقشا فى أمر الحرب وقد أراد رستم أن يعفيه من قيادة الجيش فلم يوافق رستم على ذلك .

ثم أرسل سعد أربعة عشر رجلا إلى يزدجر الثالث آخر ملوك بنى ساسان وأمر عليهم النعمان بن مقرن واجتمع يزدجر ببطانته يستشيرهم ، ثم استقبل الوفد وسأل الترجمان رئيس الوفد : ما تسمى رداءك ؟ قال : البد فتطير وتشاءم ـ ثم قاله له : ما تسمون هذه الأحذية ؟ قال : النعال ثم سأله عن الذى فى يده : فقال : سوط والسوط بالفارسية معناه الحريق فقال : أحرقوا فارس أحرقهم الله.

ثم سأل الترجمان : ما جاء بكم ؟ وما دعاكم إلى غزونا ؟ قال النعمان ان الله تعالى رحمنا فأرسل الينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ويدلنا على الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة ، ونحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فإن أبيتم فالجزية فان أبيتم فالمناجزة ، ودارت مناقشات قال على أثرها يزدجر : (لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شئ لكم عندى ثم أمر بطردهم بعد تهديدهم بغزو بلادهم ورميهم بالتراب ، وخرج الوفد حتى أتى سعد بالقادسية وأخبروه بالخبر فقال سعد أبشروا فقد أعطانا الله مقاليد ملكهم .

وتكلم يزدجر فقال: إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بينهم منك، كأن الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى حصتكم

وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فقام المغيرة بن زرارة وقال :

أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان اسوأ حالامنا فبعث الله رجلا معروفا فدعانا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وقال : من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه ، فاختر إن شئت الجزية وإن شئت فالسيف أو تسلم وتنجى نفسك قال يزدجر أتستقبلني بمثل هذا ؟ لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لاشئ لكم عندى أعلموا صاحبكم أنى مرسل إليكم رستم حتى يقاتلكم وأرسل سعد سرايا جاء بالغنائم المتعددة وجاء رستم بـ ١٢ الف مقاتل نصفهم من الفرسان ونصفهم من المشاة غير الأتباع والرقيق ونزل بالقادسية فإذا بجنود الفرس يشربون الخمر ويقتسمون النساء وضج الأهالى وهم مجوس وشكوا إلى رستم فأمر بمنع ذلك .

ثم ذهب رستم مع قواته فوقف بهم أمام عسكر سعد من وراء العقيق العتيق وأصبح جيش رستم وجيش سعد وجها لوجه وجعل رستم يلح بالصلح على زهرة / أحد قواد سعد / فقال له : أنا لم آتكم لطلب الدنيا وانما طلبنا وهمتنا الاخرة ، والإسلام دين الحق وعموده شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى والناس كلهم سواء لأنهم من آدم وحواء .

قال رستم : ما أحسن هذا أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعى قومى كيف يكون أمركم ؟ أترجعون ؟ قال : اى والله ثم لا نقرب بلادكم أبدا إلا تجارة أو حاجة قال : صدقت والله .

ثم انصرف رستم وتدارس مع حاشيته ولكنهم رفضوا ، فطلب رستم رجلا

يكلمه فأرسل إليه ربعى بن عامر ، فقال الحراس لربعى ضع سلاحك قال : إنى لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم ولكن أنتم دعوتمونى فإن أبيتم أن آتكم إلا كما أريد والا رجعت فأخبروا رستم فقال ائذنوا له هل هو إلا رجل واحد ؟ وأقبل ربعى يتوكأ على رمحه ثم جلس على الأرض فقال له رستم ما حملك على هذا ؟ قال ربعى : إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه قال رستم : ما جاء بكم ؟ قال : الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه ندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ذلك ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضى إلى موعود الله، قال رستم وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال والنصر لمن بقى قال رستم : قد سمعنا مقالتكم فهل لكم ان تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه قال : نعم كم أحب اليكم يوما أو يومين ؟ قال رستم لا حتى نكاتب أهل رأينا من رؤساء قومنا قال ربعى : إن مما سن لنا رسول الله وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء من إيذائنا ولا نمهلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن نترككم ثلاثا فانظر فى أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل اختر الإسلام فندعك وشأنك أو الجزية فنرجع ونكف عنك وإن كنت عن نصرنا غنيا تركناك وان كنت إليه محتاجا للقتال أو الحرب فى اليوم الرابع ولن نبدأك فى اليوم الرابع إلا أن تبدأنا وأنا كفيل لك بذلك على أصحابى قال رستم : أسيدهم أنت ؟ قال لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم . وانفرد رستم برؤساء أهل فارس وقال: ما ترون ؟ هل رأيتم كلاما أوضح من كلام هذا الرجل؟ قالوا : معاذ الله ان تميل إلى شئ من هذا النوع وتدع دينك لهذا الكلب أما ترى ثيابه؟ قال: ويحكم لاتنظروا

إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأى والكلام والسير ، إن العرب تستخف باللباس والمأكل ويصونون الأحساب وليسوا مثلكم فى اللباس ولا يرون ما ترون ، فأقبلوا إليه يتناولون سلاحه ويزهون به ، فقال لهم : هل لكم إلى ان ترونى مأربكم فأخرج سبعة من خرقه كأنه شعلة نار فقالا له إغمده فغمده فقال لهم : يا أهل فارس انكم عظمتم الطعام والشراب واللباس وانا صغرناهم ، ثم تركهم ورجع إلى معسكره إلى ان ينظروا إلى الأجل الذى منحه لهم وهو ثلاثة أيام وفى الغد طلبوا من سعد إرسال ربعى فأرسل اليهم حذيفة بن محصن الذى أقبل على رستم فى زى يشبه زى ربعى حتى إذا كان على ادنى البساط قالوا له : انزل قال : ذلك لو جئتكم فى حاجتى فقولوا لمليككم أله حاجة أم لى ؟ فإن قال لى فقد كذب ورجعت وتركتكم وان قال له : لم آتكم إلا على ما أحب .

فقال رستم : دعوه فدخل حذيفة بفرسه حتى بلغ رستم وهو على سريره فقال له رستم : انزل قال : لا أفعل قال ما جاء بكم ؟ قال ان الله عز وجل من علينا بدينه وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين ، ثم دعانا إلى عبادة الله ثم امرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث فأيها أجابوا الينا قبلناه : الإسلام وننصرف عنكم أو الجزية ونمنعكم إذا احتجتم إلى ذلك أو المنابذة .

قال رستم المواءمة إلى يوم قال حذيفة نعم وثلاثة من أمس .

وفى اليوم التالى طلبوا من سعد أن يبعث اليهم رجلا آخر فبعث اليهم المغيرة بن شعبة فقال لهم مثل ما قال حذيفة فاستشاط رستم غضبا وقال : ما كنت أظن أنى أعيش حتى أسمع منكم هذا ، وحلف بالشمس لا يأتى لكم صبح الغد حتى أفرغ منكم وأقتلكم جميعا لا صلح بيننا وبينكم .

وحدثت معارضات ولكنها لم تؤد إلى نتيجة .

ثم قال رستم : أتغيرون علينا ام نغير عليكم ؟ قالوا : بل أغيروا علينا وأرسل سعد إلى وحدات المسلمين أن يقفوا مواقفهم وأرسل إلى رستم يسمح له بالعبور ويقول له : شأنكم والعبور وأرسل سعد إلى الفرس ردا على ارادتهم عبور القنطرة يقول : لا وكرامة أما شئ غلبناكم عليه فلن نرده لكم فتكلفوا معبرا غير القناطر ـ فبات المجوس يردمون العتيق بالزرع والتراب وبالبوص والغاب وعملوا طوال الليل حتى الصباح فجعلوه طريقا واسعا منبسطا ثم شرع جنود رستم يردمون العتيق باثقالهم فكلما عبرت فرقة أخذت موقعها وصفوفها ثم قال رستم غداً ندقهم فقال له رجل : ان شاء الله قال : وان لم يشأ .

ثم جلس رستم على سرير أعد له يباشر اشرافه على جيشه ـ وكان معه ثلاثة وثلاثون فيلا جعل فى القلب ثمانية عشر فيلا وفى الميمنة ثمانية أفيال وفى الميسرة سبعة وعليه الصناديق فيها الرجال .

وكان هرمزان على ميمنة رستم ومهران على ميسرته وأخذ المسلمون مصافهم فأدخل سعد المقدمة وعليها زهرة اليمنى والمؤخرة وعليها عاصم التيمى ونادى منادى سعد فى جيشه ألا إن الحسد لا يحل إلا على الجهاد فى أمر لله ، أيها الناس تحاسدوا وتغايروا على الجهاد .

وقد أصاب سعد فى هذه الفترة عدة أمراض فاعتلى القصر وأكب من فوقه على وسادة فى صدره يرمى إليه من أعلى بالرقاع فيها أمره ونهيه وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر وقال سعد لمن معه احملونى وأشرفوا بى على الناس .

وخطب فيهم قائلاً : قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُون ﴾ الأنبياء : ١٠٥ .

فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة .

ورجع كل أمير إلى جنده فى موقعه من أصحابه وخطب كل واحد منهم فى جماعته وعبر المجوس نهر العتيق وعبر رستم معهم وسمع أذان المسلمين الصلاة ونادى فى المجوس ان يركبوا .

وقال سعد لرجاله : انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم ذكرهم وحرضوهم على القتال فساروا مع المسلمين بما كلفوا به .

آخر الطريق :

أرسل سعد أمرا إلى جيشه : الزموا مواقعكم لا تحركوا شيئا حتى نصلى الظهر فإذا صليتم الظهر فإنى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم واعلموا أنما اعطيتموه تأييداً الكم فإذا كبرت الثانية فكبروا وتهيؤوا ومعكم عدتكم فإذا كبرتا الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم فإذا كبرت الرابعة فشدوا النواجز على الأضراس جميعا حتى تخالفوا عدوكم وقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله وكان عمر قد الزم سعد اغلاما من القراء ، فلما صلوا الظهر أمر سعد الغلام.آن يقرأ سورة الجهاد ـ الانفال / فقرأ على أقرب الكتائب إليه فعرفت كل كتبية فهشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها وبدأت المبارزة والقتال والرمى بالسهام .

الزحف : قام طليحة بن خويلد فى قومه من بنى أسد وقال : شدوا عليهم واعلوهم باسم الله فشدوا عليهم وكانوا يتسابقون إلى البطولة والفداء وكبر سعد التكبيرة الرابعة فزحف جميع المسلمين ونشطت أفيال المجوس ـ فأرسل سعد إلى عاصم بن عمر من يقول : يامعشر بنى تميم الستم أصحاب الإبل والخيل؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حل ؟ قالوا : بلى والله ، ثم جمع الرماة من بنى تميم ووضع خطته على أساس مشاغله الفيلة ثم مهاجمتها فى غفلة وكان النصر للمسلمين .

ليلة الهدأة :

لقد أمطر رماة تميم الذين كلفهم عاصم برمى الأفيال بوابل من سهامهم والتحموا معهم فى معركة تراشق ولم تنته المعركة إلى نتيجة حاسمة .

وفى مضارب نساء المسلمين بالقديس ، جلست الخنساء بنت عمرو شاعرة بنى سليم المخضرمة ومعها بنوها الأربعة وأخذت تحرضهم على القتال وقالت لهم : إنكم أسلمتم طائعين وجاهدتم مختارين وانتم تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية والله تعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ آل عمران : ٢٠٠

فإن أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستنصرين بالله على أعدائه فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساعدها فقوموا وسطا وجالدوا واظفروا بالعزة والكرامة فى دار الخلد .

فخرج بنوها وأخذوا مواقعهم وقاتلوا واستشهدوا فى سبيل الله وحين سمعت الخنساء بذلك قالت الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجوا الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

يوم أغواث :

يوم أغواث هو اليوم الثانى من أيام معركة القادسية ـ وهو اليوم الذى بلغ الغوث فيه للمسلمين بوصول القعقاع وطلائع جيش خالد واشتراكهم فى المعركة فقد أصبح الصباح والجيشان على التعبئة .وقد وكل سعد رجالا ينقلون الجرحى إلى مضارب المسلمين بالعذيب حيث النساء يمرضنهم ووكل رجالا ينقلون الشهداء إلى مشرق حيث يدفنون هناك ، وكان النساء يحفرون القبور لدفن الشهداء وكان المسؤول عن شؤون الجرحى والشهداء حاطب بن زيد الأنصارى من الأوس وكان ممن شهدوا أحدا .

وقد أسرع القعقاع بن عمرو بالمقدمة وقسم أصحابه إلى عشرات ، وتقدم القعقاع ثم نادى من يبارز ؟ فخرج إليه بهيمين جازورية فصاح بالتارات أصحاب يوم الجسر ثم تبارزا فقتله القعقاع وكثر المبارزات التى انتصر المسلمون فيها جميعا وحمل القعقاع حملة على طريقه الكر والفر قتل فيها ثلاثين فارسا .

ليلة السواد :

استمرت المبارزة بين الفرسان حتى منتصف الليل فسميت ليلة السواد وشدد المسلمون ضغطهم على أعدائهم .

أبو محجن الثقفى : كان أبو محجن الثقفى فى الحبس لأنه كان يشرب الخمر ، فلما سمع صليل السيوف وأصواتها فى المعركة ، طلب من امرأة سعد أن تخلى عنه وأن تعيره البلقاء / فرس سعد / فإن سلمه الله رجع إليها حتى يضع رجليه فى القيد فأطلقت سلمى سراحة فأخذ يجاوز الاعداء ولا يحمل على رجل إلاقتله والناس يتعجبون وظل يحمل على العجم فلا يقف بين يديه أحد إلاقتله ، فرآه سعد فقال : الضرب ضرب البلقاء والطعن طعن ابى محجن ولولا أنه فى الحبس لقلت : إنه هو ، وقال بعضهم لولا ان الملائكة لا تباشر القتل لقلنا انه ملك .

ولما انتهت المعركة أسر أبو محجن فوضع نفسه فى القيد وأعاد الفرس إلى مكانه ولما جاء سعد وعرف ما حدث قال والله لا أضعه فى الحبس من أجل شرب الخمر فقال أبو محجن : لقد تبت إلى الله فقد كنت اشربها خشية أن يقال : إنى أخاف العقاب فانأ الأن اتركها رغبة فى رضاء الله تعالى .

عماس : جمع المسلمون شهداءهم وجرحاهم الذين أصيبوا يوم أغواث فكانوا الفين وبلغ عدد القتلى من المجوس عشرة الاف .

ثم أخذ المسلمون مواقعهم فى وقت مبكر قبل طلوع الشمس وجاءهم المدد الكثير وعادت الفيلة إلى الظهور وخرج رجل من ميسرة المجوس وقال من يبارزنى ؟ فلم يجبه أحد فخرج شبرمة بن علقمة فبارزه وذبحه وسلبه ثم أتى به إلى سعد فاعطاه سلبه لقد اشتركت الفيلة فى المعركة ولكن المسلمين انتصروا على الفرس بفضل الله تعالى واخلاص المقاتلين من المسلمين .

ليلة الهدير :

كان المسلمون على تعبئتهم فى ثلاثة صفوف،الأول للرماة،والثانى للخيول والثالث للمشاة من حملة الرماح ، وقد تراشق الفريقان بالسهام ، ثم هجم المسلمون على العدو بعد تكبيرة سعد بعد العشاء فاستقبله الليل وقامت الحرب على قدم وساق حتى الصباح وانتصر المسلمون وصاح القعقاع بن عمرو فى أواخر الليل :

نحن قتلنا معشرا وزائـــدا   أربعة وخمسة وواحـــدا

تحسبها فوق اليد الاساورا   حتى إذا ماتوا دعونا جاهرا

اللهم ربى واحترز تعامدا

أمثلة إيمانية : لقد كان المسلمون واعداؤهم وهم متعبون لم يغمض لهم جفن طوال الليل ، وكان القعقاع يقود المسلمين ويشد ازرهم ويقول لهم : ان الهزيمة بعد ساعة لمن بدا اليوم فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر واجتمع جماعة جعلوا هدفهم رستم ورأى القبائل ذلك فقام فيها رجال وحملوا على الاعداء واستمر الاحتدام ثلاثين ساعة وكان الإيمان هو سلاح المؤمنين وشهد عبد الله بن أم مكتوم الأعمى يوم القادسية وعليه درع يجر أطرافها وبيده رأية سوداء وقال انى أكثر المسلمين بنفسى .

ومر المسلمون على رجل يوم القادسية وقد قطعت يداه ورجلاه وهو يقول : مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

فقال له رجل :من أنت ؟ ياعبد الله ـ قال : رجل من الأنصار قال أنس بن مالك رأيت يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وعليه درع يجر أطرافه وبيده رأيه سوداء فقيل له : أليس قد أنزل الله عذرك ؟ قال : بلى ولكنى أكثر المسلمين نفسى فكيف بجهادى فى سبيل الله .

وقتل هلال التميمى رستم ونادى قتلت رستم ورب الكعبة ، وركب الرعب المقرنين فى الاصفاد فتهافتوا فى النهر العتيق وأدركهم المسلمون فوخزوهم بالرماح فما أفلت أحد منهم وكانوا ثلاثين الفا .

وجاء نفر من الناس حتى دخلوا على سعد فقالوا : أيها الامير رأينا جسد رستم على باب خضرة وعليه رأس غيره ، كأن الضرب قد شوهه فضحك سعد ثم تابع المسلون الفرس .

وأرسل سعد رسالة إلى أمير المؤمنين يخبره بالنصر فقرأ عمر رسالة سعد إلى المسلمين بعد المعركة وقد قسم الغنائم على المجاهدين فكان نصيب الراجل الفين ونصيب الفارس ستة آلاف وقد أمر عمر بن الخطاب سعدا أن يفضل أهل البلاد عند العطاء فزادهم سعد خمسمائة لكل منهم .

وقد زال تماما ما كان لدى الفرس من غرور وغطرسة ـ وقد أصابهم الانهيار وركبهم الذل والهوان ـ وقد تم تطهير ميدان المعركة الذى كان فيه اكثر من ٢٧٦ الف من الطرفين ، فلم يعد فيه إلا نحو ثلاثين الفا من المسلمين المنتصرين بخلاف أعداد من أسرى الفرس وقتلاهم الذين ملؤوا الميدان.

من سعد إلى عمر :

أرسل سعد رسالة إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين قال فيها : إن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد التقوا بالمسلمين بعدة لم ير الراؤون مثلها ولكن الله تعالى لم يجعل لها فائدة .

وهكذا نرى أن معركة القادسية من المعارك الرمضانية الفاصلة فى تاريخ الإسلام ، وكانت سببا فى فتح الأبواب أمام الدعوة إلى الله تعالى ودخول الناس فى الإسلام أفراداً وجماعات وبذلك انتشر الإسلام فى جميع انحاء العالم شرقا وغربا .

وعلى آثارها انفحت أبواب العراق ومن وراء العراق فارس كلها ومن عندها استطرد نصر الله تعالى للمسلمين فاستطرد بعدها السقوط الساسانى والمجوسى ـ ومن هنا نرى أن المسلمين قد كسروا شوكة المجوس كسرة لم تقم بعدها أبدا .

نعم لقد ألقى الفرس بكل طاقاتهم وسلاحهم فى أعداد ضخمة من الجند وقيادات تمثلت فى أحكم رجالهم ومع ذلك فقد انهزموا فى الحرب كلها ، كما أن المسلمين قد القوا ايضا بكل جنودهم وبقيادة تمثلت فى صحابى رسول الله وواحد من السابقين الاوائل فى الإسلام وأحد الستة الذين رشحوا للخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب (سعد بن أبى وقاص) كما أنهم نزلوا إلى مواجهة أعداد الفرس وأفيالهم بسلاحهم الذين انتصروا به على عدوهم وهو الإيمان الكامل بالله سبحانه وتعالى وبأخذهم بالاسباب كلها ثم بالتوكل على الخالق سبحانه وتعالى .

بهذا : استحقت معركة القادسية مكانتها على قمة المعارك الرمضانية الفاصلة فى تاريخ الإسلام .

فتح الأندلس
رمضان ٩٢ هـ

الأندلس قبل الفتح :

الأندلس هى التى تسمى فى العصر الحديث اسبانيا والبرتغال وتقع فى الجنوب الغربى من القارة الأوربية . وقد ظلت اسبانيا والبرتغال تحت حكم الرومان إلى أن اغارت عليها قبائل الولدان فى القرن الخامس الميلادى .

وفى أوائل القرن السادس الميلادى أغار على أسبانيا قبائل القوط الصغربين وطردوا الولدان وكونوا لهم دولة قوية فى أسبانيا ، ولكن الترف جعلهم ينصرفون إلى اللهو وتركوا الزراعة والصناعة وغيرها .

وقد اتبع رجال الدين المسيحى أسلوب الترف بعد أن كسبوا نفوذا قويا فى شؤون الدولة وجلس الاساقفة وكبار رجال الدين فى المجالس الوطنية التى كانت تجتمع للمعاونة على انتهاب الملك واضطهدوا اليهود كما يقول سير توماس ارنولد فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) وقد لقيت الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا ألوانا من العنف والاضطهاد والاكثار من الضرائب وقيل إن الوباء تفشى من سنة ٨٨ هـ إلى سنة ٩٠ هـ فى اسبانيا حتى مات أكثر من نصف سكانها.

ولذلك تمنى اليهود والعبيد الخلاص من نير الحكم القوطى الجائر وكان لذريق أخر ملوك الدولة القوطية فى أسبانيا وقد غرق فى الشهوات حتى نفرت منه القلوب .

الفتح الإسلامى :

طلب جوليان / حاكم سبتة / الذى حدث شقاق بينه وبين لذريق ملك اسبانيا / من موسى بن نصير أن يأتى إلى اسبانيا فوافق على ذلك بعد اخذ الحيطة ، وأرسل طريف بن مالك الغافقى ، وكان من البربر واليه الذى تنسب جزيرة طريف حتى الان على رأس خمسمائة مقاتل منهم أربعمائة راجل ومائة فارس جاز بيهم البحر فى أربع سفن وغزا بعض ثغور اسبانيا الجنوبية وعاد محملا بالغنائم .

وقد شجع نجاح· طريف فى هذه الغزوة موسى بن نصير على فتح اسبانيا فندب لهذا الأمر الخطير مولاه طارق بن زياد قائد جيشه وحاكم طنجة الذى كان يتمتع بصدق العزيمة وشدة البأس وصلابة العود إلى جانب ما امتاز به من حسن الكلام وقوة البيان والقدرة على التأثير فى قلوب سامعية وما اشتهر عنه من الإخلاص فى الجهاد فى سبيل الله .

وفى شعبان من عام ٩٢ هـ (٧١١ م) عبر طارق البحر فى أربع سفن وسار على رأس سبعة الاف من المسلمين وأخذ طارق/ وهو على سفينته/ يتأمل عجائب الكون وينظر إلى السماء متوجها إلى الله بقلبه يلتمس منه العون ويذكر الرسول الكريم وما لقيه فى سبل نشر الدعوة من محن وآلام ـ إذ أخذته سنة من النوم فرأى النبى وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسى فقال لطارق تقدم لشأنك ونظر إليه وإلى اصحابه قد دخلوا الاندلس أمامه ـ ثم هب طارق من نومه مستبشرا ولم يشك طارق فى نصر الله بعد ذلك .

وقد ألقت السفن مرساها قبالة الجزيرة الخضراء التى سميت بجبل طارق ، ونزل المسلمون فى مكان يقال له البحيرة جنوبى اسبانيا وكان الملك لذريق فى ذلك الوقت مشغولا بإخماد ثورة فى شمال اسبانيا .

ولما علم بنزول العرب فى اسبانيا أدرك ما يحدق ببلاده من خطر وجمع جيشا جرارا قوامه مائة الف جندى ، فبعث طارق بن زياد إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد حتى يستطيع الوقوف أمام جيش لذريق فأمده بخمسة الاف فبلغ عدد جيشه اثنى عشر الفا .

ومع الفرق الكبير بين الجيشين إلا أن طارق بن زياد قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه وحثهم على الجهاد والتذرع بالصبر وبشرهم بما سيفتحون من بلاد وما يصيبون من غنائم وبذلك ينعمون فى دنياهم وآخرتهم فقال وهو على ظهر البحر أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام على مائدة اللئام ـ وقد استقبلكم عدو كبير بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وانتم ليس لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من عدوكم وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ريحكم وتعودت القلوب الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية وانتهاز الفرصة فيه لمكن إذا سمحتم لأنفسكم بالموت وإنى لم أحذركم أمرا انا عنه بنجوة حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ـ ابدأ بنفسى واعلموا انكم إن صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارق الالذ طويلاً واعلموا انى مجيب لما دعوتكم إليه وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله ـ والتقى طارق بجيش لذريق على مقربة نهر واد لكة ـ وأخذ طارق وجنده يحملون على العدو حتى تم له لنصر ثم هجم طارق على لذريق فضربه بسيفه فرمى بنفسه فى وادى لكة فغرق وحملت جثته إلى المحيط وحلت الهزيمة بجنده وتشتت شمله وتفرق أيدى أسبانيا .

وقد رأى طارق بن يزاد ، بعد ان استشار رؤساء جيشه ان وقف القتال يعرض المسلمين للخطر فأخذ يزحف على مدن اسبانيا وقسم جنده إلى ثلاث كتائب تسير فى شبه الجزيرة كل كتيبة فى اتجاه .

وقد دلهم راعى غنم على ثغرة فى سور قرطبة العالى الحصين وأعانت الطبيعية المسلمين على أعدائهم فى تلك الليلة فانهمر المطر وسقط الجليد فلم يسمع وقع حوافر الخيل وعبر المسلمون نهر قرطبة وباغتوا حراس المدينة الذين انزووا هروبا من المطر والبرد وتسلقوا السور وباغتوا الحراس وقتلوا نفرا منهم وفتحوا الحصن واستولوا على المدينة عنوة .

يقول ستانلى لينتول : ان انتصار المسلمين فى وادى لكة ألقى باسبانيا كلها فى ايدى المسلمين فقد أخذوا يتسلمون بلدا بلدا ومعقلا معقلا .

وذهب موسى بن نصير على رأس جيش إلى الاندلس وفتح مدينة فرمونة وكانت من أحصن مدن أسبانيا ثم ذهب إلى اشبيلية وكانت من اعظم مدن الاندلس شأنا وأعظمها بناء وأكثرها اثارا ثم فتح مدينة ماردة التى امتازت بقصورها ومصانعها وكنائسها ثم فتح برشلونة .

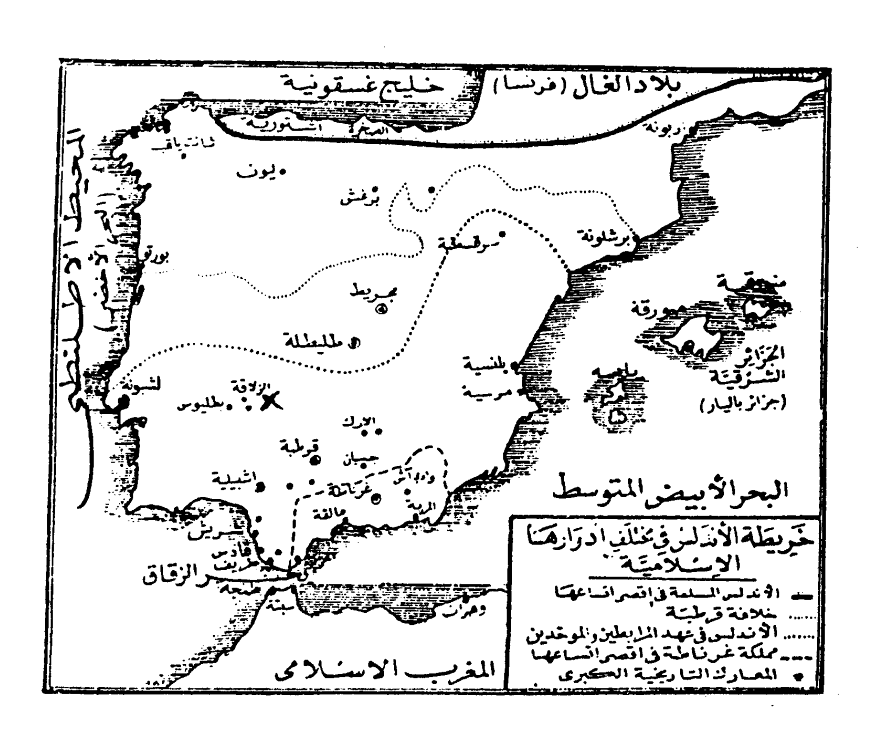
أثر فتح الاندلس :

غير الفتح الإسلامى حال أهل الاندلس بوجه عام فقد زال الحكم القوطى وأثره من تلك البلاد ولم يبق للقوط شوكة إلا فريقا اعتصم فى جبال حليفيفية فى الشمال الغربى .

أما اليهود الذين ذاقوا الذل والهوان فى حكم القوط فقد سمح لهم المسلمون بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم وسمحوا لهم بحرية الملكية واشتغل كثير منهم بالعلوم والطب والفلسفة .

وأحسن المسلمون معاملة الذين حل بهم البؤس والشقاء ونالوا كل حقوقهم المدنية وزرعواالأرض لحسابهم على أن يؤدوا الخراج ، وكان اهتمام المسلمين موجها إلى توطيد السلام بين الأجناس المختلفة وبدأ الناس يدخلون فى الإسلام لما رأوا من التسامح والعدالة والمحبة للناس جميعاً .

ويلاحظ أن سياسة التسامح كان لها الأثر فى تسهيل استيلائهم على هذه البلاد وعلى دخولهم فى الإسلام وبقى الإسلام فى الإندلس نحو ثمانية قرون وانتهى دور المسلمين حين استولى عليهم الترف فنسوا أنفسهم ونسوا دينهم فتم القضاء عليهم وعادت الاندلس إلى النصرانية مرة أخرى وانتهى منها الإسلام بصورة واضحة .



المعركة الإسلامية المنسية فى تاريخ الحروب
الفاصلة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ

إن أعداء الإسلام على مدى التاريخ يحقدون على الإسلام بصورة لم تعرف مع غير هذا الدين ، والناس على اختلاف مللهم وجنسياتهم لا يجتمعون إلا على حرب الإسلام والمسلمين ، ذلك أنهم يدركون أن الإسلام به قوة ذاتية وأن الله تعالى قد حفظه بالقرآن الكريم ، وأنه من الممكن أن يكون خطرا عليهم بصورة لا تخطر على بال أحد .

ومن أجل ذلك : فإنهم يجمعون على حربه عسكريا ولكنهم لم يصلوا إلى كل ما يريدون طوروا هذه الحروب فى العصر الحاضر حيث بدأ الغزو الثقافى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى ومن أجل المعرفة الكاملة لابد ان ننظر أحوال العالم فى القرن الخامس الهجرى .

ففى المشرق الإسلامى كانت الدولة الفاطمية تنحدر فى غمار الفوضى والضعف وكانت خصيمتها الكبرى / الدولة البيزنطية / قد أخذت تتفوق فى ميدان الحرب والسياسة ، كما بدأت فى توطيد أقدامها فى الولايات التى اقتطعتها من الدولة الإسلامية حيث فرضت الجزية على كثير من الأمراء المسلمين فى شمالى الجزيرة وشمالى الشام والدولة العباسية فى الشرق فقدت مركزها القديم كدولة الخلافة الكبرى .

وفى الغرب الإسلامى : انهارت الدولة الأموية فى الأندلس وقامت مقامها

دويلات الطوائف الضعيفة ، وظهرت عليها اسبانيا النصرانية وأخذت تتنزع منها القواعد الأندلسية التالدة ، وبذلك ظهرت على الدولة الإسلامية أمارات التفكك والضعف .

أوربا : كانت تتمخض عن مقدمات مشروعها الضخم لغزو الشرق الإسلامى ، وكانت الدولة البيزنطية لا تزال تعتبر حصن أوربا النصرانية فى الشرق ، وكانت غزواتها فى الأراضى الإسلامية توسم ـ غالباً ـ بميسم الحروب الصليبية ولكن الدولة البيزنطية قد أخذت منذ القرن الحادى عشر الميلادى تواجه اخطار ثورة إسلامية جديدة ، هى ثورة السلاجقة .

ففى بداية القرن الخامس الهجرى أسس السلاجقة دولتهم فى فارس التى امتدت إلى العراق ثم حملت مسئولية الدفاع عن العالم الإسلامى على حدود بيزنطة .

لقد كان السلاجقة من القبائل الوثنية ثم اعتنق زعماؤها الإسلام عندما نزحوا من سهول تركستان إلى الأراضى الإسلامية المجاورة وسارت غزواتهم ، بعد ذلك باسم الإسلام وتحت لوائه وقد اكتسحوا الاناضول ووطنوا الإسلام فيه حتى وصلوا إلى بحر إيجه ولم يبق للبيزنطيين إلا قواعد متفرقة على سواحل البحرين الأسود فى الشمال والمتوسط فى الجنوب .

وكان طغرلبك : قائد السلاجقة عاقلا حكيما ، ومن أشد الناس احتمالا وأكثرهم كتمانا للسر وكان كريما وقد سير فى عام (٤٤٠ هـ ـ ١٠٤٨ م) جيشاً بقيادة ابن عمه « قطامش » فغزا ديار بكر ، وسير جيشاً اخر بقيادة أخيه « إينال » فغزا ارمينية وسار إلى ملاذ كرد وداروث وبلغ فى سيره طرابزون ووقعت معارك انتهت بظفر المسلمين وعاد السلاجقة بجموع من الأسرى وكان خراب « أزرن » أعظم كارثة نزلت بأرمينية وبداية انهيار الوطن الأرمينى .

وكـان بـين الأسـرى « لباونيـس » القائــد البزنـطى ، فعـرض القـيصر (قسطنطين السابع) افتداءه بمبلغ طائل فرفض طغرلبك عرضه ، ثم أفرج عنه دون فـدية فـأمر قـسطنطين السـابع بإصـلاح مـسجـد قـسطنطيـنة والدعـاء لطغـرلبك ولكن الحرب نشبت بينهـما سريعا ، وسارع طغرلبك بنفسه لغـزو الأراضى البـيـزنطيـة وهزم الأرمن هزيمة شـديدة ثم زحف على مـلاذكـرد وحاصـرها بشدة ولكنها صمدت لمناعتها . وبعد ثلاثة أعوام سـار طغرلبك مرة أخرى إلى ملاذكرد ووصل إلى أرزن الروم ، ولكنه عـاد دون قـتال وذلك فى عام (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) ، ثم توفى طغـرلبك عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م وخلفه فى رئاسة الامبراطورية السلجوقية ابن أخيه « الب ارسلان » .

كان الب ارسلان فتى كريما رحيم القلب مقرا بأنعم الله عليه صارماً قوى النفس والعزم ، وكـان فى الثـلاثين من عـمـره ، وقـد خلف والده على الولاية فلما توفى عمه « طغرلبك » تولى مكانه الملك ، وغدا سيد امبراطورية عظيـمة تمتد من سهول تركستان إلى سهول دجلة .

لقـد نظم شـوونه الداخلـيـة وبـدأ غـزواته فـسـار إلى قلب الأناضـول وغـزا مـديـنة « قـيصـرية » وفى عـام ٤٥٦ سار إلى اذربيـجـان ثم إلى ارمينيـا وبلاد الكـرخ « جورجيا » فى جيش ضخم ومعه ولده ملكشاه ووزيره نظام الملك ، وأتم الب ارسلان فى هذه الفترة فتح ارمينة وبلاد الكرخ وضرب عليها الجزية .

لكن ارمانوس قائد الامبراطوية الرومانية الذى كان يتألف من أعراق مختلفة تمثل الشعوب التى تؤلف الامبـراطورية الرومـانيـة الشرقـيـة من (أرمن وروس وقـونان وكـرخ وترك) وغيـرهم أراد أن تأخذ حربه صـيـغة الحروب الصليـبيـة المقدسة وحدد لنفسه هدفا استراتيجيا هو القضاء على الفتى الإسلامى اليافع الب ارسلان وقدر المؤرخون عدد جيشه بثلاثمائة الف ويضم ثلاثين الف من الفرسان جلهم من الروس الأشداء .

وفى أوائل سنة ١٠٧١ م سار ارمانوس نحو الولايات الشرقية فى جيش ضخم ، وكانت أعظم قوة جردتها الدولة الرومانية الشرقية للقضاء على الإسلام وسار الامبراطور صوب أرمينة .

وسمع الب ارسلان بذلك فسارع إلى لقاء الروم فى جيش قوامه خمسة عشر ألف فارس .

وكان ارمانوس قد وصل إلى ملاذكرد بأرمينية « وهى مدينة حصينة تقع على نهر مادسيون وضرب ارمانوس حولها الحصار والتقت طلائع السلاجقة بطلائع الروم فهزم الروم وأسر قائدهم « بانبكوس وأبدى السلاجقة بهذه الضربة/ تفوقهم فى النظام والسرعة والجرأة وبدأت القوات الأخرى فى الانسحاب وطلب الب ارسلان عقد هدنة ، ورد ارمانوس : لا سلام ولا هدنة إلا بالرى .

والرى هى قاعدة الدولة السلجوقية وهذا يعنى القضاء على الدولة السلجوقية.

تقدم « الب ارسلان » نحو عدوه بقوات تبلغ نصف قوات البيزنطيين وكان الامبراطور ارمانوس قد ارسل قسماًمن جيشه لاحتلال « اخلاص » وهى حصن على الشاطئ الشرقى لبحيرة « وان» وملاذكرد الواقعة إلى الشمال من بحيرة وان .

معركة ملاذ كرد :

أدرك الجميع خطورة هذا الوضع وفى مقدمتهم الخليفة بأمر الله ، حيث أمر الدعاء بالنصر على المنابر ، وعمل نسخا من الدعاء ودفعها إلى الخطباء وفيها : اللهم أعل راية الإسلام وانصره وادحض الشرك واقطع أواصره وامدد المجاهدين بالفوز الذى يطول به باعهم وأمد السلطان الب ارسلان بالنصر فإنك تقول وقولك الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة الصف : ١٠ . ١١ .

فابتهلوا ـ معاشر المسلمين ـ إلى الله بالدعاء له بنية صافية وعزيمة صادقة وقلوب خاشعة فإنه سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ سورة الفرقان : ٧٧ .

وقال لالب أرسلان وأمامه أبو نصر البخارى الحنفى : (إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان وأرجو أن يكون الله سبحانه وتعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال فى الساعة التى يكون الخطباء فيها على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر ، والدعاء مقرون بالإجابة ، وقام الجميع يصلون لله ، وكبر السلطان وكبر معه الجميع وبكى وبكوا من خشية الله ، ورددوا فى الدعاء معه ثم قال لهم : من أراد الانصراف فلينصرف فما هنا سلطان يأمر وينهى ، وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس (كناية عن تحضير نفسه للالتحام بالأعداء) ، وليس البياض وتحنط وقال : « إن قتلت فهذا يكفى » .

ثم زحف على رأس قواته نحو الروم ، وزحف الروم للقائه . وكان الب ارسلان يعتمد على براعة حملة السهام من فرسانه ووقع الاشتباك بين الجيشين فى ظاهر ملاذكرد على ضفاف نهر اكساس ، وزحف ارمانوس فى قواته دفعة واحدة واستمر القتال حتى مغرب الشمس وثبت المسلمون وأبدوا منتهى البراعة والجلد .

ولما رأى أرمانوس ما لحق بجيشه من الأعياء والتعب عدل عن الارتداد ليستأنف القتال فى اليوم التالى ، ولكن السلاجقة المسلمين شددوا الضغط

على الصفوف المترابطة حتى أحدثوا ثغرة ، وعندئذ هرع فرسان المسلمين وانثالوا إلى قلب الروم وأمطروهم وابلا من السهام المميتة ، وانقض السلاجقة على الروم من كل ناحية وحصدوهم حصدا وأخذوا ما بالمعسكر الرومانى .

وحاول ارمانوس أن يجمع من حوله قواته الممزقة وأخذ يقاتل بمن بقى معه حتى خرج وأسر فى النهاية ووقعت الهزيمة المروعة فى أواخر ذى القعدة عام (٤٦٣ هـ / ٢٦ من أغسطس سنة ١٠٧١ م) وقتل منهم عدد كبير وأسر الامبراطور البيزنطى .

بعد النصر :

وبعد النصر عقد الب إرسلان مع الملك الأسير جلسة تأدب له وضربه ثلاث مقارع وقال له [ألم أرسل إليك رسل الخليفة / أطال الله بقاءه / فى إمضاء الهدنة فأبيت ؟ ولقد رأيت أثر البغى .

فقال ارمانوس : أيها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الأجناس ، وأنفقت الأموال لأخذ بلادك ، ولم يكن النصر إلا لك ، ووقوفى بين يديك على هذه الحالة يعد هزيمة فدعنى من التوبيخ والتعنيف وافعل ما بدا لك .

قال السلطان : لو كان الظفر لك ما كنت تفعل بى ؟

قال : القبيح :

قال السلطان : صدقت ولو قلت غير هذا لكذبتك ثم قال: ما تظن أنى فاعل بك ؟

قال : واحدة من ثلاث :

إما أن تقتلنى ، أو تشهرنى فى بلادك ، أو تعفو عنى وتقبل الأموال

والهدية وتردنى إلى ملكى مملوكا لك ونائبك فى بلاد الروم ، فان قتلك لى لن يفيدك ، وسينصبون غيرى امبراطورا .

قال السلطان الب ارسلان : ما قررت إلا العفو عنك فاشتر نفسك .

واتفق على مليون ونصف مليون دينار وجزية سنوية مقدارها ٣٦٠ ألف دينار ويرد إنطاكية والرها ومنبج وملاذ كرد إلى السيادة الإسلامية ، وأن يسرح جميع أسرى المسلمين لديه ، وأن يساعد ارمانوس السلطان عسكريا وقت الحاجة .

وفى صباح اليوم التالى أحضره السلطان وقد نصب له سريرا أجلسه عليه وألبسه قلنسوة وقباء وقال له : [قد اصطفيتك وقنعت بأمانتك وأنا أسيرك إلى بلادك وأرد إليك ملكك] .

فقبل الأرض بين يديه .

وعقد له السلطان راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله . وجعل له حاجبين ومائة غلام وسيره إلى بلاده . ولكن الانقلاب حصل ضد الامبراطور ارمانوس قبل وصوله إلى عاصمته ، ووضعت امرأته فى دير ، ولم يستطع السلطان ان يصل إلى امبراطوريته وقد خسر كل شئ .

وكانت هزيمة البيزنطيين فى ملاذكرد دليلا على نهاية الدولة البيزنطية التى كانت تحمى المسيحية من ضغط الإسلام وتحمى الباب الشرقى لأوروبا من غزو الأسيويين .

آثار المعركة :

هذه المعركة تعتبر من المعارك الفاصلة من تاريخ الإسلام ، وان كانت غير معروفة عند الكثيرين من المسلمين فى هذا العصر ، لأن أحدا لا يكاد يتحدث عنها حتى من المتخصصين فى علم التاريخ .

لقد حطمت هذه المعركة الدولة الرومانية الشرقية ، ومهدت لقيام مملكة إسلامية فى قلب آسيا الصغرى ، وقد ترتب عليها آثار مهمة منها آثار مباشرة ومنها اثار غير مباشرة .

فقد أسر ملك ثانى امبراطورية كبرى فى العالم فى ذلك الوقت ، وقضى على جيشها قضاء مبرما مما أضعف هيبتها ، وشجع الجرمان على الانفصال من مملكتهم عن الإمبراطورية الرومانية الشرقية والتى كان العالم يعترف لها بالزعامة فى ذلك الوقت .

كما أدت تلك الهزيمة إلى انكفاء ما تبقى لدى البيزنطيين من قوة الغرب واندفاع المسلمين نحو ساحل بحر مرمرة حتى وصلوه ولم يبق بينهم وبين القسطنطينية سوى أميال معدودة . وقد انطبع الأناضول بعد ذلك بالطابع الإسلامى ولا يزال حتى الآن وبذلك زال الخطر أيضا عن شمال الشام واستطاع السلاجقة استرجاع انطاكية فى عام ١٠٧٥ م .

وقد اصبحت شبة جزيرة الأناضول حتى بحر مرمرة ملكا للمسلمين ، وتأسست بعد ذلك دولة السلاجقة والتى لعبت دورا مهما فى الوقوف فى وجه الحملات الصليبية التى قدمت من أوربا فى نهاية القرن الحادى عشر للميلاد .

يقول المؤرخ الغربى (انسجان) :

إن عام ١٠٧١ م يعتبر نقطة تحول فى التاريخ البيزنطى ، ونظرا للآثار المدمرة التى خلفتها المعركة على هذه الأمبراطورية فقد سارع ميخائيل ، وطلب النجدة من بابا روما جريجورى السابع سنة ١٠٧٣ م ، وكاد البابا أن يستجيب له لولا انشغاله بالخلاف مع امبراطور ألمانيا حيث سارع خلفه ادريان الثانى إلى إعلان الحرب المقدسة التى سميت بالصليبية ضد المسلمين انتصارا للعالم النصرانى .

وقد بسط النفوذ السلجوقى الإسلامى السنى على بلاد الشام ، وتقهقر النفوذ الفاطمى واستعادت الخلافة العباسية قوتها المعنوية ، واستعادت الدولة ايضا قوتها العسكرية .

واستطاع الخليفة بعد ذلك مباشرة أعمال القيادة لفترة طويلة من الزمن .

كما أدى وجود السلاجقة فى بلاد الشام إلى حمله عبء التصدى للغزاة لفترة طويلة سواء بشكل مباشر ، أو على أيدى قوادهم بشكل غير مباشر .

ولم تمض على معركة ملاذ كرد خمسة عشر عاما حتى استطاعت جيوش الأندلس ـ والمرابطين ـ أن تسحق قوى اسبانيا النصرانية فى موقعة الزلاقة الشهيرة عام ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م .

وقد انتقل الب ارسلان فى عام ٤٦٥ هـ إلى رحمة الله وحمل جثمانه إلى مرو ، ودفن بجوار أبيه وعمره أربعون سنة .

وما أحوجنا فى هذه الأيام إلى قائد مثل الب ارسلان حتى يعيد إلى الأمة الإسلامية عزتها وكرامتها .

إن اعداء الإسلام يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

موقعة الزلاقة

أو يوم

العروبة والإسلام سنة ٤٧٩ هـ

مهما اختلف الناس فى صحة العبارة القائلة : (التاريخ يعيد نفسه) فإنهم لا يختلفون فى أن هناك عوامل للنصر وعوامل للهزيمة وأن هذه العوامل فى مجموعها لا تختلف من عصر إلى عصر ولا من مكان إلى مكان .

ولقد أمضى المسلمون فى الأندلس عدة قرون نشروا فيها حضارة الإسلام والعلم فتأثرت بذلك أوروبا كلها ، وكان ذلك سببا فى نقلها من عصر الظلمات إلى عصر النور .

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وانقسموا شيعا وأحزابا : كان ذلك فى عصر ملوك الطوائف حيث أصبح لكل مدينة ملك مشغول بنفسه ومتنافر مع غيره إلى درجة أضعفت ملوك الطوائف ، فبدأوا يستعينون بأعدائهم من ملوك الافرنج وعلى رأسهم الفونس السادس ملك قشتالة الذى أورثه أبوه الكره والبغض والحقد على المسلمين ، وقد بادر بالاستجابة لهم وكانت هذه خطوة أولى ما لبثت أن تلتها خطوات أخرى إذا أنه بدأ يأخذ منهم الجزية عن يد وهم صاغرون وبذلك انقلبت الآية فأصبح المسلمون هم الذين يعطون الجزية بدل ان يأخدوها من أعدائهم لأنهم خالفوا دينهم وتخلوا عن رسالتهم فى هذه الحياة ؟؟

ثم كانت الخطوة الأخيرة وهى محاولة الإفرنج القضاء على المسلمين فبدأ الفونس بشن الحروب عليهم يرهبهم ويستولى على حصونهم منتهزا فرصة

تفرقهم وتخاذلهم وقد جمع شمل الافرنج وأعدهم للقتال دفاعا عن ملتهم وقامت الحروب تحت هذا الشعار ، ولذلك فإنهم كانوا يتبركون بالقساوسة ويشاورونهم فى أمر القتال ضد المسلمين ، ومن أكبر الأعمال التى قام بها الفونس استيلاؤه على طليطلة عاصمة الأندلس الكبرى وذلك بعد توقيعه معاهدة بينه وبين المعتمد ملك اشبيلية وقد جاء فى أحد بنودها ما يأتى : « يتعهد ملك « قشتالة » بأن يعاون ابن عباد بالجند المرتزقة ضد سائر أعدائه من الملوك المسلمين ـ وتعهد ابن عباد بان يترك الفونس حرا طليقا فى أعماله ضد طليطلة ولا يعترض على مشروعه فى الاستيلاء عليها » .

ولذلك فقد كان ولابد وأن تسقط طليطلة بعد أربعة قرون من حكم الإسلام وكان لسقوطها دوى كبير فى البلاد الإسلامية شرقا وغربا ـ كما كان له أثر كبير فى حركة الاسترداد فهنأ النصارى بعضهم بعضا وزادهم ذلك حماسا فى طلب باقى الأرض ـ ومن ناحية أخرى علا شأن الفونس السادس بين قومه .

كما أخذه الغرور ، ولقب نفسه بالإمبراطور ذى الملتين وأصبح يبدأ رسائله قائلا : « من الملك ذى الملتين الملك الفضل ... » .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استولى على « بلنسية » ثم حاصر « غرناطة » وسار حتى وصل إلى جزيرة « طريف » فى أقصى الجنوب فأدخل قوائم فرسة فى البحر وقال ـ كما يقول ابن بسام : « هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته » ثم بدأ يعد العدة للإغارة على « إشبيلية نفسها فجهز جيشين من رجاله وسار على رأس جيش ثالث لمهاجمة « المعتمد » فى عقر داره .

يقظة المعتمد :

وهنا ـ هنا فقط بدأ ابن عباد يحس بخطئه وأصبح ينظر إلى المستقبل بعين الخوف لأنه أدرك انه مأكول لا محالة ! وحينئذ لن ينفعه أن ينادى : « ألا إنما أكلت يوم أكل الثـور الأبيض » فناقش الأمـر مع ابنه وقـال له : هذا اللعين «الادفنش » وقـد أخذ طليطلة من ابن ذى النون بعـد سبع سنين وعـادت دار كفـر ، قد رفع رأسه إلينا وإن نزل علينا كـمـا نزل على ـ « طليطلة » فإنه ما يتـركنا حتى يأخـذ « اشبيليـة » ونرى من الرأى أن نبـعث إلى هذه الصـحراء وملك « العدوة » نستدعيه للجوار ليدفع عنا هذا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا وقد أبغضنا الخاصة والعامة » .

وقد كـانت القـشة التى قصـمت ظهـر البـعير مـا حدث من ابن شـاليب اليـهودى الذى أرسله الفونس على رأس جمـاعة لتستلم الجزية من المعتـمد إذ قال : « والله لا أخذت هذا العيار ولا آخذه إلا مشجرا وبعد هذا العام لا آخذ منه إلا اجفان البلاد » ورد المال إلى المعتـمد فلم يتحمل ابن عباد هذا الموقف من اليهودى وقال لجنوده : إيتونى باليهودى وأصحابه وسجن النصارى وصلب اليـهـودى ورفض الفـدية التى قـدمـهـا له وهى زنتـه مـالا . وقـال هو : والله لو أعطيتنى « العدوة » والأندلس ما قبلتهـما منك « وبعد صلب اليـهودى أطلق سراح المعتقلين فى مقابل أن يرد إليه الفونس حصنا كان قد أخذه .

وجاء الفونس بجيوشه لمحاصرة إشبيلية وأرسل إلى ابن عباد رسالة ساخرة يقـول فيـهـا : « كـثـر ـ بطول مقـامى ، فى مجلسى الذباب واشتـد على الحر فاتحفنى من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسى وأطرد بها الذباب عن وجهى» وتضـايق ابن عبـاد أشد الضيق فلم يتمـالك نفسه من أن يأخذ الرسالة ويكتب على ظهـرها قرأت كتابك وفهـمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر فى مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله .. » .

وبدأ ابن عباد يتصل بملوك الطوائف ليكتوبوا إلى ابن تاشقين وقد بلغته انباء بطولته وقوة شخصية وآماله لتوحيد المسلمين والتمسوا منه معونته بالعبور إلى أهل الاندلس ليتولى قيادة الصف الإسلامى وقد حاول بعض الملوك المسلمين ان يثنوا ابن عباد وان يخوفوه من يوسف إلا انه قال له كلمته المشهورة « ان رعى الجمال خير من رعى الخنازير » يعنى ان ملك ابن تاشقين لهم خير من ان يملكهم الفونس .

واتصل ابن عباد ومعه بعض ملوك الطوائف بيوسف بن تاشقين الذى رد بقوله : « تحية من سالمكم وسلم عليكم وانكم مما فى ايديكم من الملك فى اوسع اباحة مخصوص باكرم ايثار وسماحة فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا إخاءنا باصلاح إخائكم والله ولى التوفيق لنا ولكم والسلام » .

موقف العلماء :

كان العلماء الذين يحرصون على أداء رسالتهم ويرضون ضمائرهم يسدون النصحية للملوك طوال هذه الفترة ويقومون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ ولكن هذا كله لم يمكنهم من أن يوقفوا موجة الضعف والخور لدى الحكام حتى وصل بهم الأمر إلى الحقد والحسد ثم الخصام والحروب وأخيرا استعداء الأعداء ثم اجتمع العلماء فى قرطبة وتبادلوا الرأى فيما وصلت إليه حالة البلاد من سوء وضعف ثم ساروا إلى القاضى ابن أدهم وقالوا له :« ألا تنظر ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية إلى الإفرنج بعد أن كانوا يأخذونها منهم وابن عباد وهو الذى حمل الإفرنج على المسلمين حتى جرئ عليه ما جرئ وطلب منه ما طلب وقد دبرنا رأيا نعرضه عليك .. » ثم أشاروا على القاضى ان يكاتب يوسف ويرغبه فى الوصول إليهم أو يرسل قائدا من قواده فوافقهم على ذلك وبدأت اتصالات علماء الاندلس بابن تاشفين ثم قام

العلماء الذين أهمهم الأمر وآلمهم ما وصل إليه المسلمون من ضياع بالسعى إلى توحيد القوى وفى مقدمتهم أبو الوليد الباجى الذى طاف بالإمارات الأندلسية المختلفة يدعو الأمراء إلى جمع كلمة المسلمين وإلى الاستعداد ـ للانخراط فى صفوف المجاهدين كما اتصلوا بإخوانهم من فقهاء المغرب وراحوا يمهدون لاستقبال الجيوش المرابطة التى ستحل بالجزيرة لإنقاذ البلاد .

يوسف بن تاشقين :

أمام دعوة المرابطين بالمغرب لرجل الزهد فى المال وفى الرياسة وفى عرض الدنيا والذى أخد على عاتقه مهمة ان يعيد إلى المسلمين عزهم ومجدهم وقوتهم ـ ثم هو القائد الإسلامى الفذ الذى يجيد رسم الخطط والتعبئة الكاملة وإنجار الخطط المناسبة التى توصله إلى النصر على الأعداء .

كان يتتبع الحوادث الجارية فى الأندلس وكان يحس بالمرارة لما وصل إليه حال المسلمين هناك من سوء وكان كثير الصمت والتأمل لا يتكلم إلا إذا أجبر على الكلام .

وحين وصلته الدعوات المتتالية من الأندلس لإنقاذ المسلمين مما هم فيه قال: « أنا مندوب لنصرة هذا الدين ولا أتولى هذا الأمر إلا أنا بنفسى » ثم بدأ فى إرسال عيونه لينقلوا إليه صورة كاملة عن مواقع الإفرنج وعن الاسلحة التى يستخدمونها ليكون على استعداد كامل ... ولم يكن يثق فى أحد من أهل الأندلس لأنهم فى رأيه إما فاسق أو متحلل أو مستتر !! ولذلك فقد كان مستقلا عن ملوك الطوائف حين عبر لإنقاذ الأندلس من الإفرنج وقد اختار « الزلاقة » للنزول فيها وهى سهل يقع فى مقربة من البرتغال الحالية بعد ان وافته عيونه بأن الفونس يتجه بجيوشه إلى الجهة الغربية من الأندلس واتخذ الجزيرة الخضراء مقرا للإمدادات والجيوش ونزل مع قواده بعد أن نزل الجيش

كله ويذكر المؤرخون ان البحر قد اضطربت أمواجه قبل أن ينزل يوسف فنهض واقفا وسط السفينة يستصرخ ربه باسطا يديه بالدعاء قائلاً : « اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا خيرا للمسلمين فسهل علينا جواز هذا البحر وإن كان غير ذلك صعبه حتى لا أجوزه » .

وهذا الدعاء يبين لنا مدى صلة يوسف بالله ومدى وضوح الهدف فى ذهنه وقد أستجاب الله دعاءه وهدأ البحر ووصل القائد أرض الجزيرة بسلام ـ يقول المراكشى إن المعتمد بن عباد طلب منه ان يستريح فى أشبيلية فرفض قائلاً « إنما جئت ناويا إجهاد العدو » كما رفض أن يدخل فى مشاكل ملوك الطوائف لأنها تأخذ الوقت والجهد وتشغله عن الهدف الأصلى ، وأشار عليهم بأن يسووا أمورهم فيما بينهم وبين أنفهسم لأنه جاء للجهاد .

وقد توافد ملوك الطوائف إلى يوسف بدعوة منه للجهاد فى سبيل الله وقد رأوا يوسف وجيوشه يسرعون إليهم ملبين دعوتهم لإنقاذهم مما هم فيه وكان روح المسلمين فى الأندلس كانت فى حاجة إلى قيادة مؤمنة تشد من عزمهم وتربط بين قلوبهم وقد انضم إلى جيش ، المرابطين قوات المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس وعدد من ملوك الطوائف والمتطوعين من سائر البلاد الإسلامية .

الإعداد للمعركة :

أكثر يوسف من استخدام الخيل وكون فرقا من الفرسان المدربة على القتال كما كون فرقا لبست الدروع والخوذات ، وكان بجيش يوسف جميع انواع الاسلحة قديمها وحديثها وقد بنى الأسوار والحصون وشحنها بالأطعمة والأسلحة ورتب فيها العسكر كما كانت لديه القدرة على اكتشاف المواهب والقادة وكان يعد كل واحد للدور الذى يصلح له وكانت لديه سيطرة كاملة على جيوشه وكان يقظا حذرا مستعدا دائما لملاقاة العدو .

ورأى القائد يوسف أن يقسم الجيوش إلى معسكرين معسكر الأندلسيين من ناحية ومعسكر المرابطين من ناحية أخرى ليعرف كل مكانه فى الجهاد ـ وكان يدعو ملوك الطوائف إلى الألفة والمودة والتمسك بالدين ومواصلة الجهاد حتى ينتصروا على أعدائهم وقد جعل القوات الأندلسية تحت قيادة المعتمد وجعلها فى المقدمة كما جعل القوات المرابطة تحت قيادته فى المؤخرة وجعل قائدين من قواده للطوارئ وهما سليمان بن عائشة وأبو بكر : سير ابن أبى بكر وذلك حسب تخطيط بارع يدل على عبقريته الحربية وأخذت الجيوش كلها مواقعها فى بطحاء الزلاقة استعدادا للمعركة .

معسكر الافرنج :

كانت أنباء المرابطين وعبورهم البحر قد وصلت إلى أسماع الفونس ـ وكان فى ذلك الوقت محاصرا لسرقسطة المسلمة ـ فذعر لهذه الأنباء وعزم على الانصراف ولكنه أراد ان يغطى خسائره فأرسل إلى المستعين ابن هود ملك سرقسطة يطلب منه مبلغا كبيرا من المال مقابل أن يفك الحصار عنه .

وكانت أخبار المسلمين قد وصلت إلى مسامع المستعين فامتنع ساخرا من الفونس فلم يضيع الفونس وقته وعاد إلى طليطلة عاصمته الجديدة ومعه الجيوش والعتاد ، وبعث إلى « شانشوار » أمير زملك : يطلب منه الإسراع لنجدته وكان محاصرا لطرطوشه المسلمة كما طارت رسله إلى « ليون » وقشتالة وغيرهما فوصل إلى طليطلة عشرات الألوف من الرجال والفرسان ووفدت من البلاد المجاورة من ولايات فرنسا وإيطاليا وغيرهما مما وصلت إليها أخبار الحرب، وتحولت إلى حرب صليبية رفع فيها القساوسة والرهبان والأساقفة الصلبان ونشروا الاباطيل ودعوا لقتال المسلمين .

وقد اغتر الفونس بعد ذلك وأرسل إلى المعتمد يقول : « إن صاحبكم

يوسف قد جاء من بلاده وخاض البحار وأنا اكفيه العناء فيما بقى ولا أكلفكم تعبا أمضى إليكم وألقاكم فى بلادكم رفقا بكم وتوفيرا عليكم » يريد أن يلقى المسلمين فى أرضهم حتى لا تخرب بلاده إذا وقعت الهزيمة .

وقدرت جيوش الفونس بثمانين الف مقاتل وأرسل الفونس جواسيسه ليجمعوا له الأخبار من كل مكان ، وكان المختارون من جنده أربعين ألف دارع وكان يقول : « بهؤلاء اقاتل الجن والأنس وملائكة السماء » وكتب كتابا مطولا إلى يوسف يهدده ويصف ما عليه جيشه من بأس وقوة وما معه من عدد لا قبل لهم به وكان يعلم ان جيش يوسف يبلغ عشرين ألف فلما وصل الكتاب إلى يوسف أجاب مبتسما واثقا من نصر الله « هذا كتاب طويل اكتبوا على ظهره : « الذى يكون ستراه » .

وأعاد الكتاب إلى الفونس واتبعه يوسف بكتاب آخر سار فيه على سنة رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده إذ عرض فيه على الفونس الدخول فى الإسلام أو الجزية أو الحرب يقول فى رسالته التى بعث بها إلى ابن إدريس : « فبعثنا إليه نحضة على الإسلام ودخوله فى ملة محمد عليه السلام أو دفع الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وأراد الفونس أن يقوم بخدعة حربية تعطيه فرصة الانقضاض على الجيش الإسلامى وهو على غير استعداد : ذلك أنه قال لرسول يوسف : « إن غدا الجمعة وهو يوم المسلمين ولست أراه يصلح للقتال ولست اختار اليوم التالى وهو يوم الأحد فانه يوم النصارى وعلى ذلك فإنى اقترح للقاء يوم الاثنين ففيه يستطيع كل منا ان ويجاهد بكل قواه لاحراز النصر دون الإخلال بيومه وأدرك يوسف الخداع وأخذ حذره وجاءت عيونه تخبره بالجلبة والحركة والضوضاء فى معسكر النصارى مما يدل على ان القوم يستعدون للقتال .

المعركة :

فى أثناء ليلة الجمعة جاء فارسان من فرسان إستطلاع المسلمين واخبرا يوسف بأن هناك تحركات غير عادية فى جيش الأعداء وبأنه سمع الفونس يقول لجنوده « إن ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا اهل حفاظ وذوى بصاير فى الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد ـ فاقصدوا ابن عباد واهجموا عليه واصبروا فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون من بعده ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة » .

وما كاد يظهر ضوء صبح يوم الجمعة الموافق ٢٥من رمضان ٤٧٩ هـ حتى زحف الافرنج على الجيش الإسلامى ، وبدأ القتال بهجوم من مقدمة الفونس على القوات الأندلسية التى يقودها ابن عباد الذى جعل يسير وسط جنوده وهو يردد هذه الأبيات :ـ

لابـــد مـــن فــــرج قريــــب

يأتيــــك بالـعجــب العجــيب

غزو علــــيك مبـــــــارك

سيعـــود بالفـــرج القـــــريب

لابد من يوم يكون اخـا يوم القليب

ولكن حملة الفونس كانت قوية فما لبث جيش الأندلسيين أن فر معتصما بأسوار « بطليوس » تاركا المرابطين وحدهم لكن المعتمد صمد للقتال مع فئة قليلة من جنوده ، وأصدر يوسف أمره إلى فرقة من القوات المغربية التى يقودها سير بن أبى بكر لتشغل قوات الفونس واستطاع سير أن يوقف تقدم قوات الفونس التى ما لبثت أن انشغلت بمطاردة الأندلسيين وهذا ما كان يهدف إليه

يوسف حتى يظهر عنصر المفاجأة الذى كان غالبا ما يدخره القادة العظام ليكسبوا به المعارك .

نزل يوسف بنفسه إلى قلب المعركة فى خطة مفاجأة وانقض على جيوش العدو من الخلف واستولى على معسكر الأعداء وادار فيهم القتل وكان صوت الطبول يشق عنان السماء فصمت آذان الإفرنج وأوقع ذلك فى قلوبهم الرعب حيث لم يكن لهم عهد بمثل ذلك ، وأصيبوا بالذعر حينما شاهدوا معسكراتهم تلتهمها النيران التى ارتفعت إلى السماء وسيوف المرابطين تحصدهم ... وما أن علم الفونس ما حل بمعسكره حتى ارتد لينقذ القيادة من الهلاك فاصطدم بمؤخرة المرابطين ودارت معارك رهيبة كانت خسارة الإفرنج فيها فادحة ، ولما وصل إلى محل قيادته استؤنفت المعركة وكان يوسف فوق فرسه يقرأ القرآن ويحث جنوده على الثبات ويرغبهم فى الاستشهاد ، ثم ارسل إلى جنوده بتغيير خطة القتال فقد تحكم المرابطون فى جبهة القتال وبدأوا فى صفوف متراصة متناسقة ثابتة وهى خطة مبتكرة فى القتال لم يعهدها الفونس من قبل فأصيبوا بالذهول واستسلموا للموت وقد عجزوا عن المقاومة ومن مناهضة هذه الصفوف المتراصة التى فاقت بتنظيمها وقوتها وقدرتها كل خيال.

ثم جمع يوسف شمل المرابطين الأندلسيين وساروا يعملون السيوف فى الاعداء المنهكين وأشار يوسف إلى القوة السودانية بالنزول إلى المعركة وكانت أربعة آلاف مقاتل ، فانقضت على النصارى انقضاض الصاعقة واستطاع أحدهم ان يصل إلى الفونس وان يقتل فرسه ويطعنه بخنجر فى فخذه طعنة نافذة ففر هاربا هو وجماعة من خاصته يبلغون خمسمائة فارس واعتصموا بتل كبير قريب حتى دخل الليل فساروا حتى وصلوا عند « قوية » على بعد عشرين مرحلة من ميدان القتال وكان معظمهم من المثخنين بالجراح ، ومات كثير منهم فى الطريق ولم يصل إلى طليطلة سوى مائة .

ومضى المسلمون فى ميدان القتال يرقبون الموقف حتى لا يفاجأوا بما لم يكن فى حسبانهم ، وفى الصباح أخذ فرسانه فى مطاردة المتخلفين بينما عمدت فرقة منهم إلى جمع المغانم وقد كانت وفيرة حتى كان الفارس منهم يربط معه خمسة افراس أو ـ أزيد ـ وجمع جنوده وذلك بعد ان أمر بدفن الشهداء من المسلمين وقد استشهد نحو ، العشرين من كبار المسلمين منهم قاضى مراكش أبو داود وعبد الملك المعمودى .

وقد أشاد المؤرخ الألمانى المعاصر « جوزفين أشياخ » بالدور العظيم الذى قام به المرابطون واستطاعوا أن ينقذوا مسلمى الأندلس كما أشاد بقول ابن تاشقين حاضا على الجهاد فى سبيل الله : « يامعشر المسلمين اصمدوا لجهاد أعداء الله الكافرين من يرزق الشهادة فله الجنة ومن يسلم فقد فاز بالأجر العظيم » .

خاتمة

عمت الفرحة المشرق والمغرب وسجد المسلمون شكرا لله على ما أولاهم من نصر مبين وعلى يد رجال اصطنعهم لنفسه فأخلصوا له وأدوا الامانة وبلغوا الرسالة ، ووصلت وفود المهنئين إلى أمير المسلمين ، وتحركت أريحية عالم المسلمين الأمام الغزالى فأرسل إلى يوسف يهنئه بنصر الله ويعده باللقاء فقد اعتبره الأمير المثالى ودعا الله أن يديم نصره ليعيد للإسلام قوته وعزته وسمى هذا اليوم بيوم العروبة والإسلام .

فقد أثرت معركة الزلاقة فى معنويات « الفونس » فكسرت من غروره وأضاعت آماله إذ أنه كان يمنى نفسه بالهيمنة على شبه الجزيرة كلها فى اقرب وقت بطرد المسلمين ثم إنه حرم من الجزية الهائلة التى كان يدفعها له ملوك المسلمين وأحس إنه امام جبهة قوية تهدده بالخطر .. وأصيب التكتل الافرنجى فى أوربا بصدمة عنيفة حينما وصلته رسائل الفونس تحذره من قوى

التحالف بين ملوك الأندلس ويوسف بن تاشقين وتطوع ، ملوك أوربا لتغطية الخسائر وعاد يوسف إلى بلاد المغرب بعد ان ترك ثلاثة آلاف جندى لتكون عونا عند اللزوم .

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة لقد أوشكت غارات الفونس فى الماضى ان تحقق اهدافها بسبب الخلاف بين حكام المسلمين وتفرق الكلمة وفتور الهمة وإنتشار الفساد فأقبل الخطر الإفرنجى بخيله ورجله ودعواه ودعايته وتعرضت الأندلس للهزيمة وأشرفت على الضياع لولا ان قيض الله لها وللإسلام قائدا شجاعا مؤمنا بالله واثقاً بنصره هو يوسف بن تاشقين الذى رفع لواء الصلة بالله والجهاد فى سبيله ووحد المسلمين لصد غارات الافرنج فحفظ للبلاد استقلالها واستبقى للحضارة الإسلامية فاعليتها وقدرتها .

وهكذا كانت هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى تاريخ الإسلام وأكد أن المسلمين ينهزمون حينما يتركون دينهم ويتبعون أهواءهم ويخاصم بعضهم بعضا وينتصرون حينما تتحد كلمتهم ويتجهون إلى ربهم وينصرون دينهم وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾** محمد:٧ .

موقعة حطين

رمضان سنة ٥٨٣ هـ

لما جاء الصليبيون معرة النعمان وفتحوها قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين فى الجوامع والمختبئين فى السرادقات وكان عدد القتلى مائة الف .

وكان من عادة الصليبيين أن يقتلوا أهل البلد الذى يدخلونه فى بلاد المسلمين ويخربوا عمرانه ويحرقوا كتبه ومتاعه وآثاره وقد أحرقوا دار الحكمة فى طرابلس وكان بها مائة ألف مجلد .

وكان بالقدس من الصلبيين ٦٠ ألف مقاتل وكان السكان من الصليبيين يرون أن الموت أيسر من أن يملك المسلمون بيت المقدس .

ويلاحظ ان الحروب الصليبية كان دافعها سياسيا وذلك لتوطيد سلطة الكنيسة وسيطرتها على الإمارات الأوربية وبذلك يتحقق خضوع جميع الممالك الكاثوليكية لسلطة البابا وفى هذا يقول المؤرخ الفرنسى اندريه رينان :

وهكذا جندت البابوية أوربا لتنفيذ خطتها الواسعة وأرغمت الأمراء على الخضوع لها عن طرق مختلفة فانقضت جيوشهم بشغف لانقاذ اورشليم وقد أعلن الباب ان كل من يشترك فى الحرب ستغفر له ذنوبه وخطاياه بالقوة التى زود بها الله ، ومن هنا نشأت فكرة الغفران وأصبحت من طقوس الكنيسة الكاثوليكية .

وقد وجدت هذه الدعوة صدى كبيرا ففى السنة الثالثة كان يزحف على طرق الشرق مائة وخمسون ألف رجل من جميع أنحاء اوربا بقيادة جود فرى .

وقد مات ارمانوس الثانى قبل أن يتلقى التهنئة بدخول الصليبين بيت المقدس فى ١٥ من يوليو سنة ١٠٩٩ ـ وقد أنشؤوا امارات أربعة هى الدها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس .

يقول الاستاذ نقولا زيادة أن الحملة الصليبية الأولى والفظائع التى ارتكبتها فى طريقها وفى احتلال القدس ليست مما يشرف بل ويظهر لنا رغبات الصليبين من خلال تصرفهم السئ مع مسيحى فلسطين أنفسهم فقد استولواعلى أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت فتفرق المسيحيون فى فلسطين وشرق الأردن وكان بطريقهم يقيم فى القسطنطينية أو فى القاهرة تحت حماية الخلفاء الفاطميين وهذا يحدث فى نفس المكان المقدس الذى علم فيه المسيحيون الناس الحب والرحمة حتى مع الأعداء فكيف تحصل المجازر البشرية التى قتل فيها الصليبيون أكثر من سبعين الف فى بيت المقدس وقد تشرد مسيحيوا الشرق والتجأ البطريق ليقيم بمصر تحت حماية الخلفاء الفاطميين مما يدل على الدوافع السياسية وقد فضل أكثر المسسيحيين فى فلسطين ان يتركوها / بعد دخول الصليبيين ليقيموا مع اخوانهم المسلمين وتحت حماية الفاطميين بمصر .

العالم الإسلامى :

فى هذه الفترة كان العالم الإسلامى ينقسم إلى ثلاثة أقسام ولكل قسم فروع وأجزاء ـ ولم يكن بين دول العالم الإسلامى رابطة متينة ـ بل ان اثنتين منها كانتا على خلاف وعداء وهما الدولة العباسية والدولة الفاطمية .

ومعنى ذلك أن العالم الإسلامى لم يكن متماسكا بل انه كان مقسما إلى دول متنافسة وما أشبه الليلة بالبارحة وكانت الدولة العباسية مقسمة إلى إمارات وكان بعضها يستعين بالصلبيين ضد اخوانهم المسلمين .

وقد تولى صلاح الدين الايوبى سلطنة مصر سنه احدى وثلاثون وذلك فى سنة ١١٦٩ م ولقب الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى : وقد أحس صلاح الدين برسالته وان عليه طرد الصليبيين من الأرض المقدسة وان يهب نفسه وحياته للجهاد فى سبيل الله وأن يضع نصب عينيه دعامتين بنى عليهما سياسته التى لا يحيد عنها :

أولاً : توحيد الأمة الإسلامية بحيث تؤلف امبراطورية إسلامية شامخة .

ثانياً : عندما يتم هذا يتجه بقوات المسلمين المتحدة ليطهر الشرق من الصليبيين .

لقد رأى صلاح الدين ان تمكن الصليبين من بلاد المسلمين سببه ان العالم الإسلامى مقسم إلى ولايات ضعيفة متناثرة ليس بينها صلة ولا يجمعها هدف واحد ـ بل ان العداوة والبغضاء انتشرت فيما بينهم فى كثير من الأحيان كما رأى أن الأساس الذى يجب أن تقوم عليه سياسة هذه الأمة الإسلامية هو جمعها تحت راية واحدة وحين يتم ذلك سيرحل الصليبيون لا محالة وكانت اول الصعوبات هى جهاد النفس من كل الجوانب وقد انتصر صلاح الدين فى ذلك على نفسه وكانت الصعوبة الثانية تظهر فى اختلاف القواد على الرضا عن رسالته وكان هم صلاح الدين فى البداية إسعاد الشعب المصرى ففتح أبوابه للناس وكان يستمع لشكاوى الناس بنفسه ويحقق رغباتهم ولذلك أصبح محبوبا من الجميع .

لقد كان صلاح الدين الايوبى متحركا فى كل اتجاه إلا أنه كان يحرص فى تحركاته هذه على أقصى درجات السرية لكى يحصل على أكبر قدر من المفاجأة .

وكان ينتقل بجيشه بشكل سريع ومفاجئ بحيث يصعب على أعدائه توقع المكان الذى سيظهر فيه مما جعلهم غير قادرين على اكتشاف نواياه وتحديد الاتجاه الذى سوف يهاجمهم فيه يقول المؤرخ وليم الصورى فى ذلك :

(وكان من المستحيل الحصول على معلومات محددة عن طريق الكشافة بخصوص هدفه الحقيقى وقد أبقيت التخمينات المتنوعة والتى كانت جميعها جاعلة الملك والنبلاء فى حالة قلق وترقب دائمين وكانوا يتوقعون من يوم لآخر أن صلاح الدين سوف يغزو فجأة منطقة من المناطق بقوات قوية فوق العادة .

وقد بدأ يهاجم الصليبيين وانتصر عليهم فى غزة وظهر ان الخوف من الصليبيين ما هو إلا اسطورة صليبية بثوها فى نفوس العرب كما فعلت اسرائيل فى العصر الحاضر حيث أشاعت أن الجيش الاسرائيلى لا يقهر وان خط بارليف لا يمكن اختراقه إلا بالقنابل الذرية .

موقعة حطين :

بعد فتح العقبة استأنفت قوافل الحجاج سيرها إلى الأراضى المقدسة وكانت تلك القوافل كثيرا ما تهاجم من ريجنالد صاحب حصن الكرك / بشرق الأردن / وكان ريجنالد يدعى الفروسية ولكنه لم يكن يهاجم إلا قوافل الحجاج أو القوافل المسالمة الآمنة .

وفى خلال سنة ١١٨٦ م مرت قافلة للمسلمين قرب الكرك وخرج اليها ريجنالد وانقض عليها وكان الصليبيون فى هدنة مع صلاح الدين وقد نهب ريجنالد القافلة وأسر رجالها وسبى نساءها وامتلأ زهوا وهو يقول للاسرى :

(ما دمتم تعتقدون فى محمد فادعوه الآن أن يفك اسركم ويخلصكم مما أنتم فيه) .

وعلم صلاح الدين الأيوبى بذلك فأعلن الجهاد المقدس ليطهر الشرق من الصليبيين ، فقد نقص الصليبيون الهدنة وفعلوا ما فعلوا بالمسلمين .

وجاء الصليبيون من كل مكان وعلى رأسهم ملك القدس الجديد (جوى) وإلى جانبه امراء الصلبيين وكبار رهبانهم وفرسانهم ومنهم الطاغية ريجنالد صاحب الكرك وريجون صاحب طرابلس الذى تناسى الخلاف الذى كان بينه وبين الملك جوى والصداقة التى كانت بينه وبين وصلاح الدين والتى نمت وترعرعت حتى انه كان يزور صلاح الدين ويتلقى منه الحفاوة والود .

وسار صلاح الدين إلى طبرية واستولى عليها ثم سار غربا وأرسل طلائع استطلاعه فعلم ان الصليبيين متحصنون فى موقع دفاعى عند طبرية من الغرب من موقع صفورية .

خطة صلاح الدين :

وضع صلاح الدين خطة الحرب مع الصليبيين ومنها أنه كان لا يقوم بالهجوم على الصلبيين فى مواقعهم المجهزة ـ بل إنه كان يستدرجهم للقتال فى الأرض المفتوحة التى تناسبه .

ومن خططه أنه كان يبعث بعض قواته ليهاجم قلعة طبرية من جديد ويخرب فيها ويحرق فيسرع الصليبيون لمحاولة إنقاذها عندئذ يسارع صلاح الدين فيمتلك موارد المياه الوحيدة فى تلك الجهة ويطوق الصليبيين فى الأرض المفتوحة مع منع أى مورد للمياه عنهم وبذلك يمكن القضاء عليهم بأقل الجهود .

الموقعة :

أرسلت زوجة ريمون التى لجأت إلى قلعة طبرية تستنجد بالملك جوى ، فجمع جوى قواده وامراءه واستشارهم فرأى ريمون عدم الهجوم على صلاح

الدين لكبر جيشه ... وخالفه كثيرون فى الرأى مع أنه صاحب طبرية وزوجته هى التى تستغيث ، واستقر رأى الصليبيين على الهجوم بعد صياح الطاغية ريجنالد : (الحطب الكثير تأكله النار) .

وفى الصباح سار الصليبيون نحو طبرية ، وعندئذ أصدر صلاح الدين أمره بالاستيلاء على موارد المياه وبذلك منعت المياه عن الصليبيين فأمض الصليبيون الوصول إلى الماء مهما كلفهم ذلك ، ولكن صلاح الدين منعهم وطوقهم تمام فلم يكن أمامهم إلا القتال وقاتل الصليبيون على شدة العطش والجهد فى الجو القائظ ، وزاد صلاح الدين على ذلك انه أمر بايقاد النار فطغى دخانها على عيونهم فتشبثوا بتل حطين ثم انفضوا يريدون الوصول إلى بحيرة طبرية بأى ثمن وهم يتحرقون شوقا إلى الماء الذى يرويهم ولكن صلاح الدين وقف أمامهم كالصخرة الثابتة فارتدوا إلى التل وأمرهم ملكهم جوى بالانقضاض ثانية وتأدية واجبهم نحو الصليب والعرش ولكنهم لم يمتثلوا لهذا الأمر فقد بلغهم الإرهاق من العطش مبلغه وقد أحكمت عليهم دائرة الحصار تماما .

عندئذ أعطى صلاح الدين إشارة الهجوم على الصليبيين فحمل المسلمون عليهم وأشبعوهم قتلا وأسرا ، وألقى الكثيرون من الصليبيين أسلحتهم واتجهوا فى ذلك نحو المسلمين ـ وقد تدلت ألسنتهم كالكلاب العطشى ـ بل لقد جر اليأس نفرا من فرسان الصليبيين إلى أن يسلموا أنفسهم إلى صلاح الدين ويقولون له :

(أيها الملك ما الذى يؤخرك على القضاء عليهم اقض عليهم فهم عجزة أموات) .

ولم يبق للصليبيين إلا أمل واحد هو أن يعطى الملك جوى أمر الهجوم إلى ريمون وقد دفع ذلك ريمون بفرسانه إلى الأمام فى هجوم شديد ، وتراجع تقى

الدين ابن أخ صلاح الدين بأمر منه وفتح ريمون وجنوده طريقا يخرجون منه ، ثم لم تلبث دائرة الحصار أن أقفلت وبذلك فصل الملك جوى عن ريمون وفرسانه وكانوا يسمون فرسان الصليب وكانوا يقاتلون قتال المستميت فأراد صلاح الدين استبعادهم عن المعركة ، ولذلك أعطى الأمر لابن أخيه أن يفتح دائرة الحصار ليخرجوا من المعركة ، وكانت تلك عبقرية من صلاح الدين فى إدارة المعركة .

واستمر القتال عند سفح تل حطين ولم تلبث خيمة الملك جوى ان وقعت فكان ذلك ايذانا بانتهاء المعركة واسر كبار الصليبيين فسجد صلاح الدين شكرا لله تعالى الذى نصره على الصليبيين .

وتوالى إحضار الأسرى وجاء جندى واحد يجر معه ثلثمائة من جنود الصليبين أسرهم بنفسه وربطهم بحبل متين وأسر الملك نفسه ومن كان معه .

الملك جوى : بعد موقعة حطين أسرع صلاح الدين فوصل إلى عكا بعد أربعة أيام من المعركة وقد دخلها فائزا منتصرا وأمن أهلها الصليبيين ورحلهم بأموالهم سالمين ، واحتفل بصلاة الجمعة فى مسجدها الكبير الذى استعمل كنيسة لمدة قرن من الزمان .

لقد كان صلاح الدين الأيوبى يهدف إلى استرداد بيت المقدس وسحق المملكة الصليبية فسار مع قواته إلى عسقلان لكى يتم عزل بيت المقدس عن البحر وطوقها من البر بالمجانيق حتى سلمت بالأمان .

ثم سار إلى بيت المقدس وضرب الحصار حول المدينة المقدسة وضربها بالمجانيق ورد الأفرنج على ذلك فضربوا المسلمين بالمجانيق من فوق الأسوار وقاتلوا أشد قتال ولكن المسلمين استمروا فى ضرب المدينة بشدة وتمكنوا من نقب السور فبعث الإفرنج وفداً منهم يطلب الأمان من السلطان فرفض السلطان فى

البداية وذكر الافرنج بما فعله أسلافهم مع المسلمين وعند افتتاح المدينة من الفتك بأهلها المسلمين جميعا ثم قبل السلطان منح الأمان للصليبين واتفق معهم على ان يسلم الإفرنج المدينة على أن يؤمنوا فى أملاكهم وكان يعتبر أهلها أسرى يسمح لهم بالبقاء أربعين يوما وكان بالمدينة وقت تسليمها للمسلمين سبعين الف رجل ما بين فارس وراجل غير النساء والاطفال .

ومما يذكر ان الصليبيين قد خالفوا مبادئ الفروسية مع ضعفهم وخورهم وصمموا على أن يحاربوا حتى الموت فسلوا سيوفهم ولكنهم أسروا جميعا بما فيهم الملك جوى وأخوه الطاغية ريجنالد الذى استهزأ قبل عام بمحمد وبالمسلمين ، أما ريمون فلم يرخ العنان لفرسه حتى وصل سالما إلى صور ومنها إلى طرابلس حيث مات بعد ذلك بقليل غارقاً فى الحزن والعار ودعا صلاح الدين الملك جوى والطاغية ريجنالد إلى خيمته وأجلس الملك إلى جانبه وأمر له بالماء فشرب الملك منه وأعطى ما تبقى منه لريجنالد حتى أصبح آمنا إذا شرب ماء صلاح الدين ثم قال للمترجم : قل للملك ما سقيته أنا ولكنك انت الذى سقيته .

نتائج المعركة :

تظهر لنا تلك المعركة العبقرية العسكرية لصلاح الدين الأيوبى ـ فقد ربح المعركة قبل ان يضرب ضربة واحدة ـ لقد نجح فى خداع العدو تماما حيث استدرجه للقتال فى الأرض التى اختارها هو لأنها تناسبه ولا تناسب عدوه .

وقد امتلك موارد المياه الوحيدة فى تلك الجهة وفى ذلك الجو القائظ جو يوليه ـ ومنعها من الصليبين حتى يحاربوا على شدة العطش والجهد ـ وقد اكمل صلاح الدين خداع العدو بفك دائرة الحصار حتى يخرج ريمون وجنده وبذلك أخرج من المعركة أشجع فرسان الصليبيين الذين فضلوا النجاة بجلودهم وبذلك تحددت نتيجة المعركة ومن نتائج هذه المعركة أن صلاح الدين أسر وقتل

فى هذه المعركة ملك بيت المقدس وجميع أمراء الصلبيين - وبذلك تفككت الرابطة بين الصلبيين وأصبحوا بدون قيادة صحيحة تجمع قواهم - وكان ذلك فتحا للطريق إلى القضاء على الصلبيين .

وقد قضى المسلمون ليلتهم فرحين مهللين بعد انتصارهم فى معركة حطين - وفى اليوم التالى عاد صلاح الدين إلى طبرية ليستولى على قلعتها - وكان فيها زوجة ريمون وعرفت ما حل بزوجها وبقومها فسلمت القلعة وهدأ صلاح الدين من روعها وأوصلها إلى حيث أرادت آمنة مطمئنة مع أولادها وحاشيتها محملة بالهدايا .

ويلاحظ أن أروع ما فى هذه المعركة بعد نصر صلاح الدين ، الشئون الإدارية / المياه والصحراء / وجو الصيف القائظ فى وقت لم تكن فيه الشؤون الإدارية تخطر على ذهن أى قائد فى ذلك الوقت حتى أن كثيرين من الصليبيين كانوا يلقون اسلحتهم ويتجهون فى ذلك نحو معسكر المسلمين وقد تدلت ألسنتهم من العطش .

ومما يلاحظ ان المفكرين العسكريين لم ينادوا بالشؤون الإدارية كمبدأ من مبادىء الحرب إلا بعد الحرب العالمية الثانية .

أما أهدافها بالنسبة لصلاح الدين فكانت رائعة فقد قتل فى هذه المعركة ملك بيت المقدس وجميع أمراء الصلبيين وبذلك تفككت الرابطة بين الصليبيين وأصبحوا بدون قيادة تجمع قواهم وكان ذلك مفيدا للمسلمين فى تحقيق أهدافهم يقول المؤرخ أبو شامة : ان من شاهد قتل الفرنج قال : ما هناك أسير ومن عاشر الاسرى قال : ما هناك قتيل .

معركة حاسمة

تعتبر موقعة حطين أم المعارك الحاسمة فى الحروب الصليبية لأنها مهدت الطريق لاسترداد بيت المقدس وسقوط المملكة الصليبية بعد ان عاشت فى قلب

الشرق الإسلامى زهاء تسعين عاما تهدد كيانه ونظمه ـ وكانت قاعدة حصينة لحملات الغرب ومشاريعه العدوانية المتوالية وكان سقوطها ضربة قاصمة على الصليبيين .

وقد استطاع صلاح الدين الإيوبى أن يجمع كلمة المسلمين من جبال كردستان ومشارف آسيا الصغرى حتى صحراء ليبيا وان يعتمد على جهودها الموحدة فى رد الصليبيين ورد عدوان الغرب النصرانى وكانت جيوش صلاح الدين تجتمع فى صعيد واحد يشعر الجميع بشعور صلاح الدين ويعملون جميعا لغاية واحدة هى الذود عن الإسلام وأرضه وحضارته .

تطهير **الساحل** :

وبعد انتصار المسلمين فى حطين انحطت روح الصلبيين وكانت الخطوة التالية لصلاح الدين هى انقاذ بيت المقدس وقد عرف القائد صلاح الدين كيف يستغل نجاحه بعد حطين فلم يترك للصليبيين فرصة لإعادة تنظيم قواتهم ولم شعثها بل انه اسرع فوصل عكا بعد أربعة ايام من معركة حطين ودخلها ظافرا منتصرا وأمن أهلها الصليبيين ورحلهم بأموالهم سالمين وكانت الحصون والبلدان التى فى ايدى الصلبيين سرعان ما تخضع له بدون مقاومة تذكر ـ بل إن جنودها كانوا يفرون إلى حصون المسلمين وكان الذعر الذى خلفته حطين يطاردهم أينما ذهبوا وسار صلاح الدين إلى قلب فلسطين وأخذ كل ما فى بيت المقدس والساحل ماعدا مدينة صور التى بدأت تتحصن .

وفى كل معركة من المعارك كان صلاح الدين يعطى الصلبيين شروطا نبيلة كريمة لحماية البلدة وأهلها فكانوا يقبلون راضين موقنين بأن وصلاح الدين إذا وعد انجز ما وعد .

وقدعاون صلاح الدين فى تطهير تلك الحصون أخوه العادل الذى سار

بجيش من مصر ـ وقد التقى الجيشان أمام عسقلان وقد اوقف قائد بحريته لؤلؤة بالبحرية المصرية تجاه الساحل لتأمين البحرية ولمهاجمة آية نجدة للصليبيين تأتى إلى فلسطين وبذلك حوصرت فلسطين من البحر فلم تدخلها نجدة من الغرب وقد شغل قوات الصليبيين الجنوبية بتثبيته لها بوساطة جيش مصر بقيادة العادل وبذلك أصبح الحصار تاما فصلاح الدين من الشرق والعادل من الغرب لقد كانت القدس الرمز والقصد والمناخ وقد استولى صلاح الدين عليها بعد معركة حطين وقد منح صلاح الدين الأمان الكامل لغير المسلمين فخرجوا من المدينة بما يملكون وبقى فيها ابناؤها من المسلمين والنصارى الشرقيين وتحررت القدس بدون إراقة نقطة دم واحدة وهى التى سالت فيها دماء المسلمين قبل تسعين عاماً .

وبعد فترة :

استقر الأمر على ان يدفع الصليبيون ثمنا لحريتهم عشرة دينانير للرجل وخمسة دنانير للمرأة ودينارين للطفل ويشاء الله تعالى القوى القادر ان يسلم بيت المقدس للمسلمين فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب الذى حدث فى مثله من ستة قرون أن أسرى الله سبحانه وتعالى بنبيه محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى الذى بارك حوله .

وارتفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة ورأى الصليبيون من كرم صلاح الدين الأيوبى ونبله ما رفعه فى أعينهم وأعين التاريخ إلى أعلى حد يمكن أن يصل إليه إنسان .

ومن المصادفات الملفتة للنظر أن صلاح الدين قد فتح أكثر المدن فى ايام الجمع وقد كان عفو صلاح الدين على الصليبيين عاما بل أنه اكرمهم إكراما كبيرا لم يحدث مثله فى التاريخ مع ان الصلبيين حين فتحوا بيت المقدس فى عام ١٠٩٩ م قاموا بذبح سبعين الف مسلم ونحن نرى ما يحدث الان فى فلسطين من اليهود بمساندة العالم الغربى كله .

ولذلك فإننا فى حاجة اليوم إلى صلاح الدين آخر يجمع شمل المسلمين ويصلهم بخالقه سبحانه وتعالى ويسير بهم إلى الجهاد فى سبيل الله وبذلك ينقذ العالم الإسلامى من الفرقة والخنوع للغرب فى كل ما يطلبه منه ويعيدهم إلى الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانة وبذلك يستطيعون ان ينقذوا بيت المقدس وفلسطين وافغانستان والشيشان وكشمير وغيرها من ايدى اعداء الإسلام .

وبذلك يعيدون للإسلام مجده وللمسلمين كرامتهم وعزتهم وينصرون الله فينصرهم الله تعالى وبذلك يحققون معنى الآية الكريمة ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ محمد : ٧ .



يبدو أن الطبيعة البشرية بما فيها من أثرة وحب للنفس تتغلب فى كثير من الأحيان على المصلحة العامة ، وبخاصة حين لا يكون الإيمان عميقا فى النفس، ويكون من نتائج ذلك ما تقرؤه فى كتب التاريخ ، وما نراه ونسمع عنه فى عصرنا الحاضر من تنافس وتناطح وحروب ، وكل ذلك يشقى به الفرد كما يشق به المجتمع .

ونحن نقرأ فى كتب التاريخ أنه حين وفاة السلطان صلاح الدين الايوبى سنة ٥٨٩ هـ توزعت المملكة بين أولاده وأفراد اسرته ، وأراد كل واحد منهم أن يثبت ذاته فنشأ لذلك الصراع بينهم ، وبدلا من ان يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم فى أداء رسالتهم الإسلامية إذا بهم يتجاوزون هذا كله ، ويبدأ بعضهم فى الاستعانة بالصلبيين لتدبير المؤامرات ضد إخوانهم .

وتجرا الصليبيون على المسلمين ، فبدأت غاراتهم على المدن الإسلامية التى استردها صلاح الدين منهم بعد تضحيات كثيرة .

داخل المجتمع الإسلامى :

نحن نعرف ان الهزيمة تأتى من الداخل قبل أن تأتى من الخارج ، ولذلك فلابد وان نلقى نظرة على المجتمع الإسلامى فى الفترة التى سبقت موقعة عين جالوت ، لنرى ما وصل إليه وأثر ذلك فى طمع أعدائه فيه .

كانت الحالة الداخلية فى المجتمع الإسلامى حالة فرقة ونزاع وعدم استقرار، وهذا ما هيأ الجو إلى أن تكون الدولة الإسلامية منهزمة من الداخل قبل أن تهزم من الخارج على يد أعدائها .

في هذه الفترة كان جيش بغداد يبلغ عشرة آلاف فارس فقط ، قلة فى العدد وضعف فى العزيمة وخور فى الهمة ، أما الخليفة فقد سلبت منه كل سلطانه .وملوك خوارزم الذين قامت دولتهم ،القوية فى الجزء الشرقى من العالم الإسلامى فى أخر القرن الخامس عشر وأصبح أكثر العالم الإسلامى خاضعا لسلطاتهم ، لم يبذلوا قواهم إلا فى توسيع رقعة الحكم ودعمه وقمع خصومهم ولو أنهم وجهوا اهتماهم فى تبليغ رسالة الإسلام إلى من يجاورهم لأمكنهم بذلك ان يضموه إلى عقيدتهم وان يستأنسوا وحشيته ولاقاموا بذلك لأنفهسم سياجا يحميهم .

خارج المجتمع الإسلامى :

فى هذه الفترة من التاريخ ، ظهر على المسرح الخارجى التتار ـ القوة الجديدة فى العالم ـ والتى عرفت بالوحشية المتناهية فى معاملة البلاد التى تغير عليها ومما زاد الطين بلة ان الخليفة المستعصم استوزر محمد بن العلقمى فى سنة ٦٤٢ هـ ولم يكن وزير صدق فزاد اضطراب نظام الحكومة ، ودبر للإسلام وأهله ما وقع من الامور التى لم يؤرخ ابشع منها منذ بنيت بغداد .

زحف التتار :

بدأ التتار زحفهم بقيادة ملكهم جنكيز خان نحو الجزء الشرقى للعالم الإسلامى ايران وتركستان حتى وصلوا إلى بغداد ، وقاموا بتدميرها وابادة علمائها سنة ٦٥٦ هـ زحف التتار اولا نحو بخارى فأتوا عليها من كل جانب حتى أصبحت كومة من تراب ، ثم سمرقند حيث أحرقوها وأبادوا أهلها ، وهكذا فى جميع المدن التى مروا بها : همدان وقزوين ومرو نيسابور وخوارزم .

وهزت غارات التتار العالم الإسلامى هزا عنيفا وغلب على الناس اليأس حتى دخل فى قلوب الناس أن مقاومتهم مستحيلة ، وشاع فى الناس ان التتار لا يهزمون ، ولذلك أصبح كل شئ مصدقا ، وقد قتلوا فى مدينة الرى وحدها

أكثر من سبعمائة ألف مسلم ، وفى بغداد استمر التتار يقتلون الأهالى أربعين يوما ، حتى أصبحت خاوية على عروشها ، ولم يرع التتار عهدا ولا ذمة، وقد أنزل هولاكو الخليفة المستعصم فى خيمة ثم دخل الوزير واستدعى التتار أهل الحل والعقد ليحضروا المعاهدة فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم وهكذا تخرج طائفة وراء طائفة لتلقى نفس المصير .

وكما فعلوا فى بغداد فعلوا فى حلب سنة ٦٥٨ هـ حيث استولوا عليها واحرقوا مساجدها وجرت الدماء فى الأزقة ثم وصل التتار إلى دمشق وسلطانها الناصر ، يوسف بن أيوب فخرج هاربا ومعه الاغنياء ودخل التتار دمشق وتسلموها بالأمان ثم غدروا بأهلها ووصلوا إلى نابلس والكرك وبيت المقدس وغزة .

وقد كان للنصارى موقف غريب فقد استقبلوا التتار خارج مدينة دمشق وقدموا إليهم الهدايا وكان معهم صليب يحملونه على الرؤوس وهم ينادون بشعارهم ويقولون : « ظهر الدين الصحيح ـ دين المسيح ـ ويذمون الإسلام وأهله ومعهم أوانى الخمر يرشون منها على وجه الناس ، ويأمرون كل من يجتاز الأسواق أن يقوم لصليبهم ، فتكاثر عليهم المسلمون وردوهم إلى كنيسة مريم فوقف خطيبهم فمدح دين النصارى وذم الإسلام وأهله ودخلوا إلى الجامع بخمرهم ، فاجتمع قضاة المسلمين وفقهاؤهم فدخلوا القلعة يشكون هذا إلى متسلمها (ابل سيان) فأهينوا وطردوا وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم .

وأمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذى قرره الإسلام ، وسار على هذا النهج خلفاؤه .

ويلاحظ أن حاشية جنكيز خان كانت تضم عددا كبيرا من النصارى من بينهم قائده « كتبغا » وفى الوقت الذى ذبحت قوات التتار المسلمين فى مذابح بغداد وغيرها ، لم يمس النصارى فى تلك المدن بسوء .

موقف أوربا :

وقد أيد النصارى فى أوربا التتار تأييدا تاما ، ذلك لأنهم كانوا أصدقاء لهم، كما كان لهولاكو زوجة نصرانية وكان لذلك أثره فى سلوك التتار ، فولى سوريا رجلا نصرانيا بعد ان دخلها التتار ، وكانت نظرة النصارى فى اوربا على انهم حلفاؤهم ، من هنا فكر البابوات فى نشر النصرانية بين التتار كما فكر ملوك أوروبا فى تأليف حلف بين التتار والمسيحيين لتدمير البلاد الإسلامية .

وكان لويس قد دعا قبل ذلك بعض رجال التتار إلى فرنسا حيث فاوضهم على عقد اتفاقية عسكرية تنص على أن يقوم طرفاها بعمليات حربية ضد المسلمين يكون دور التتار فيها غزو العراق وتدمير بغداد والقضاء على الخلافة الإسلامية ، ويكون دور الصليبيين حماية هذا الغزو من الجيوش المصرية وتجريد جيوشهم لمنع نجدة القوات المصرية للمسلمين فى آسيا ، وبذلك تعزل مصر عزلا تاما .

يقول الاسقف « دى مسيل » فى كتابه عن الكنيسة والحملات الصليبية لقد كانت الحملة التترية على الإسلام حملة صليبية بالمعنى الكامل لها ، و قد هلل له الغرب وارتقب الخلاص على يد هولاكو وقائده النصرانى « كتبغا » الذى تعلق أمل الغرب فى جيشهما ليحقق له القضاء على المسلمين وهو الهدف الذى اخفقت فى تحقيقه الجيوش الصليبية ولم يعد للغرب أمل فى بلوغه إلا على أيدى التتار خصوم المسلمين .

قطز :

فى هذه الفترة كان يحكم مصر «قطز» ترى ماذا كان يحدث لو كان رجل

غيره هو الذى يحكم مصر فى هذه الفترة ؟؟ لكن الله سبحانه وتعالى كان رحيما بعباده فقيض للأمة الإسلامية فى هذه الفترة ذلك الرجل الذى عزم على أن يقوم بدوره كاملا فى إعادة مجد المسلمين ومحو الآثار التى نجمت عن الأحداث التى قام بها التتار فى البلاد الإسلامية .

أرسل التتار رسلا إلى مصر ليشيعوا بين أهلها أن التتار خلقوا ليحكموا ويتحكموا فى الرقاب ، وعلى الناس أن يقبلوا ذلك ساجدين ، وقد آثار هؤلاء المبعوثون الفتنة فى البلاد منذ حلوا فى ضيافة الملك ، وقد كانوا يمنونه ويعدونه.

وكان رد قطز على ذلك ان أمر بقتل الرسل ، فتم شنق أربعة منهم عند باب الساحة من ناحية الأزهر ، وترك الخامس ليعود إلى هولاكو فيبلغه ما رأى.

لقد كان مع هؤلاء الرسل رجال مخصوصون للتجسس وليعرفوا مداخل الحصون ومخارجها واستحكامات المدينة وما إلى ذلك من الاماكن الحربية وكان مع الرسل كتاب من هولاكو يهدد فيه ويطلب التسليم وقد جاء فيه (يعلم الملك قطز أنه من جيش المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى الاقاليم وانا نحن جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ، فأتعظوا بغيركم واسلموا لنا أمركم ، فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكر، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، فخيلولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال » .

وقد عزم قطز على قطع أى أمل فى حل غير القتال من المترددين

بالمنهزمين فقتل الرسل وقال قولته الحاسمة : ان الرأى عندى هو أن نتوجه جميعا إلى القتال ، فإذا ظفرنا فهو المراد وإلا فلن نكون مسلمين أمام الخالق .. ومن هنا بدأ يعد العدة المتكاملة لمقابلة التتار ، فأرسل إلى ملوك المسلمين لتحقيق وحدة الغاية فى مواجهة التتار وانقلبت القاهرة إلى دار صناعة تعد للحرب عدتها .

العز بن عبد السلام :

وجمع قطز القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه من أمر التتار ، وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم ، وحضر أصحاب الرأى فى دار السلطنة بقلعة الجبل .

وقال ابن عبد السلام : انه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على المسلمين قتالهم وجاز لكم ان تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى فى بيت المال شئ وتبيعوا ما لكم من الحوائط والالات النفيسة ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ، ويتساووا هم والعامة .

وأما أخذ الاموال من العامة مع بقايا فى ايدى الجند من الأموال والالات الفاخرة فلا . وقد وافقوا على قوله ولكن الكلام شئ والتنفيذ شئ اخر وبين الملك المظفر قطز للعز بن عبد السلام صعوبة الاخذ من اموال الامراء فقال له العز : لا ارجع فى فتواى لرأى ملك أو سلطان ، وذكره بالله وبالعهد الذى قطعه على نفسه ان يقوم العدل وينظر فى حال المسلمين ومصلحتهم واغلظ له فى القول ، وقد اغرورقت عينا الملك المظفر قطز بالدموع وقام إلى الشيخ فقبله على رأسه قائلاً : بارك الله لنا ولمصر فيك وان الإسلام ليفخر بعالم مثلك ، لا يخاف فى الحق لومة لائم .

وقد عهد قطز إلى الشيخ عز الدين بالإشراف على التعبئة المعنوية ، وإلى وزيره ابن عبد الرفيع بالاشراف على جمع الأموال وتسليح كل قادر على حمل السلاح ، وشملت التدريبات البلاد روح من التشوق إلى الله ومثوبته والإقبال عليه والتوبة من الذنوب وكل واحد أصبح يتمنى لو مات شهيدا وسارع أصحاب دور اللهو إلى اقفالها واصبحت القاهرة كانها محراب عبادة .

وقد صفى قطز مشكلاته مع المتقاعسين من المماليك حين عرض أمرهم على الأمة فأشارت بحبسهم حتى تنتهى المعركة ، كما طلب من الافرنج أن يحددوا موقفهم واتفق معهم على الوقوف على العباد .

عين جالوت :

أحس قطز بان التتار سيزحفون إلى مصر بعد الشام ، فقد تواترت الاخبار بان التتار قد استولوا على سورية وفلسطين ، كما وصل إلى القاهرة كمال الدين عمر بن النديم رسولا من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام يطلب من قطز النجدة على قتال الكفار ، ورأى الملك قطز ان خير وسيلة للدفاع الهجوم .

فرأى ان يخرج من مصر بالجنود ويشن عليهم الهجوم فى الشام ، وقد كان خروجه فى يوم الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨ هـ بجيوش مصر ومن انضم إليهم من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم ، ونودى فى القاهرة ، والفسطاط وسائر اقليم مصر بالخروج إلى الجهاد .

وتقدم قطز إلى جميع الولاة بحث الأجناد للخروج إلى القتال وسار حتى وصل إلى الصالحية فجمع الأمراء وكلمهم فى الرحيل فأبوا وامتنعوا عن الرحيل فقال : يا أمراء المسلمين : لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وانتم للغزو كارهون وانا متوجه فمن اختار الجهاد فليصحبنى ومن لم يختر ذلك

فليرجع إلى بيته فان الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين.

وقد كان قادة قطز يريدو الدفاع لا الهجوم للصيت الذى بلغهم عن التتار، وبذل قطز جهودا ضخمة فى رفع معنويات الجماهير والقادة على حد سواء وكان عليه أن يزيل أثار الحرب النفسية المغولية التى تمثلت فى قول بعض الامراء « ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومة التتار » وهنا قال قطز : « ان الرأى عندى ان نتوجه جميعا إلى القتال فإذا ظفرنا فهو المراد وإلا فلن نكون مسلمين أمام الله تعالى .

وعمق جهده على حشد كل طاقاته المادية والمعنوية للحب ، فلا يعلو صوت على صوت المعركة ولا يقبل عذر من قادر على الجهاد بماله وروحه ، وقد كان هو قدوة لهم فسار على رأس جيشه حتى وصل إلى مدينة غزة والقلوب وجلة ، وفى غزة كانت جموع التتار بقيادة « بيدر » الذى كان ينتظر لقاء قظز بأمر من كتبغا الذى أمره بحرب قطز ، وبعث قطز طلائع قواته بقيادة ركن الدين بيبرس لمناوشة التتار واختبار قوتهم وتحصيل المعلومات فالتقى بيبرس بطلائع التتار فى عين جالوت بالقرب من نابلس وشاغل التتار حتى وافاه قطز على رأس القوات الاصلية من جيشة بينما استنجد بيدر بكتبغا الذى وفاة بجحافل قواته .

وفى يوم الجمعة الخامس والعشرون من شهر رمضان سنة ٦٥٨ هـ نشبت بين الجيشين معركة حاسمة وقد كان التتار يحتلون مرتفعات « سهل عين جالوت » فانتصروا على جيش قطز فى أول الامر وكانت طبيعة معاركهم الانقضاض على الأعداء تطبيقا للحرب الصاعقة التى يمارسونها فى حروبهم معتمدين على سرعة الخيل .

وكان القتال شديدا لم ير مثله حتى قتل من الطائفتين جماعة كثيرة وتغلغل التتار عمقا فى مسيرة قطز فانكسرت انكسارا شنيعا ، ولكن قطز حمل بنفسه فى طائفة من جنده واسرع لنجدة المسيرة حتى استعادت مواقعها واستأنف قطز الهجوم المضاد بقوات جنوده وهو يصيح : وإسلاماه .

واقتحم القتال وباشره بنفسه وأبلى فى ذلك اليوم بلاء عظيماً ، وكانت قوة القلب مؤلفة من المتطوعين المجاهدين اتباع الطرق الصوفية وغيرهم من الذين خرجوا يطلبون الشهادة ويدافعون عن الإسلام بإيمان وكان قطز يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت ويضرب لهم المثل بما يفعله من اقدام وبيديه من استبسال .

وكان من ذكاء قطز أنه اخفى معظم قواته النظامية فى شعب التلال لتكون كمائن وبعد ان كر بالمجاهدين مرة بعد اخرى حتى تزعزع جناح التتار ، برز المماليك من كمائنهم وأداموا زخم الهجوم بشدة وعنف .

وكان قطز امام جيشه يصيح وإسلاماه يا الله انصر عبدك قطز على التتار وكان جيشه يتبعه مقتديا بإقدامه وقتل فرس قطز من تحته وكاد يعرض للقتل لولا أن اسعفه أحد فرسانه فنزل له عن فرسه وسارع قطز إلى قيادة رجاله متغلغلا فى صفوف أعدائه حتى ارتبكت صفوف التتار وشاع ان قائدهم كتبغا قد قتل فولوا الأدبار .

وقد نصحه اتباعه بالهروب ولكنه قال : الموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان .

ولم يضع المسلمون وقتا فبدأ المسلمون فورا بمطاردة التتار حتى دخل قطز دمشق فى أواخر رمضان فاستقبله أهلها بالابتهاج واستمرت المطاردة إلى قرب مدينة حلب فلما شعر التتار باقتراب المسلمين منهم تركوا ما بأيديهم من أسارى المسلمين ورموا أولادهم فتخطفهم الناس ونالوا من البلاء ما يستحقون .

١ ـ ان كل الحسابات العسكرية تجعل النصر فى جانب التتار ، فقد كانت تجاربهم فى الحرب طويلة ، ولم يكن لقطز ولا لقادته مثل هذه التجارب ولا ما يقاربها كما كان جيش التتار فى عدد لا يحصيهم إلا الله تعالى كما يقول المؤرخون كما انهم اشتهروا بالوحشية فكانوا يقتلون الرجال ويستاقون الأسرى ولذلك فقد هرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى المغرب كما هرب جماعات إلى اليمن وإلى الحجاز والباقون بقوا فى خوف شديد يتوقعون الهزيمة وهكذا كانت الروح المعنوية فى جيش المسلمين قبلا منهارة ، اما التتار فلم يهزموا فى معركة قط ، وقد استغل التتار حرب الأعصاب فكانوا يشيعون الشائعات المختلفة التى تؤثر فى نفوس أعدائهم ، وقد ازداد جيش التتار بالذين التحقوا بهم من المرتزقة والصليبيين بعد احتلال الشام .

٢ ـ كما أن جيش التتاركان يتميز بفرسانه المدربين ، وكان تعداد فرسانه كبيرا مما يسر له سرعة الحركة وتطبيق حرب الصاعقة التى كانت من سمات حرب التتار .

٣ ـ ثم إن مواقع جيش التتار ـ فى عين جالوت ـ كانت افضل من مواقع جيش المسلمين لان تلك المواقع كانت محتلة من التتار قبل وصول الجيش المصرى إلى المنطقة حيث كانت تحت سيطرتهم .

كما أن جيش التتار كان متفوقا على جيش قطز فى قضاياه الإدارية إذا انه كان يستند على قواعده القريبة فى أرض الشام وهى التى استولى عليها واستثمر خيراتها بينما كانت قواعد جيش المسلمين الإدارية بعيدة عنه ، لأنه كان يعتمد على مصر وحدها فى اعاشته ، والمسافة بين مصر وعين جالوت طويلة وبخاصة فى تلك الأيام التى كانت المتطلبات الإدارية فيها تنقل على الدواب والجما ل مخترقة الصحارى والقفار .

وعلى الرغم من هذا كله انتصر الجيش الأسلامى .

انتصر لانه سار فى اتجاه الإسلام الحق فالعلماء ، وعلى رأسهم العز ابن عبد السلام قدموا ارشاداتهم التى نفذت بكل اخلاص وامانة .

والشعب اتجه إلى الله تعالى مستغفرا من ذنوبه طالبا من ربه النصر .

وقطز القائد كان البطل والقدوة وكان يتميز بالشجاعة وإدارة القتال وتصميمه على محاربة التتار مهما كلفه ذلك ، فليس امامه إلا النصر أو الاستشهاد .

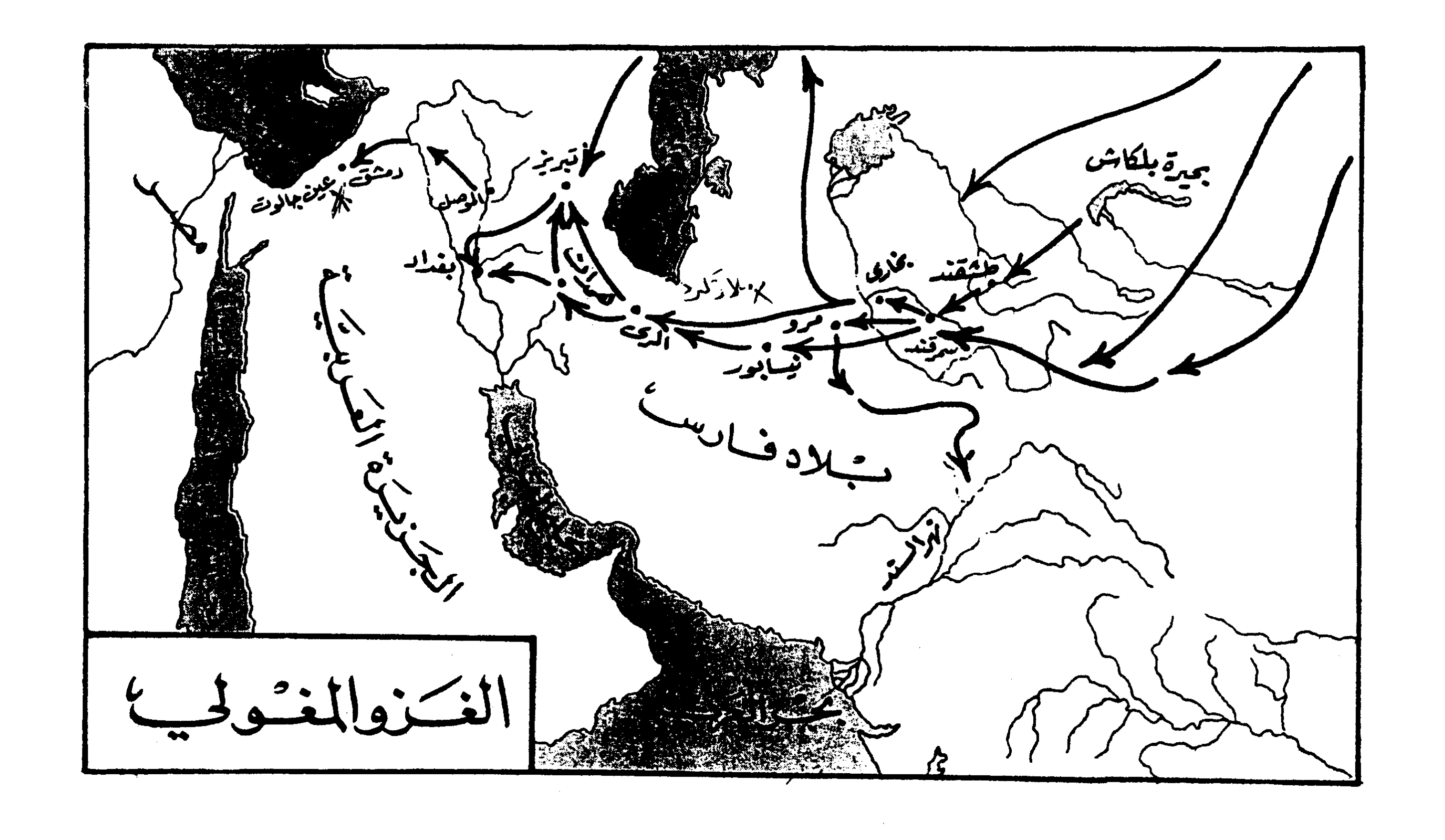
وحين اطمأن إلى نصر الله لم يأخذه الغرور بل ترجل عن فرسه ومرغ وجهه فى التراب وسجد شكرا لله على ما أولاه من نصر باهر ، وحمد الله واثنى عليه ثناء عاطراً .

ولاول مرة فى تاريخ الزحف المغولى الذى امتد نصف قرن يخرج اليه شعب ليقاتلهم قبل ان يصلوا اليه وينتصر عليهم انتصارا ساحقا ،وهم القوة الجبارة التى اعتادت ان تستسلم الشعوب اليها قبل ان تصل إليهم .

خاتمة :

يقول « ديس ميستيل » معلقا على هذه المعركة « وهكذا نرى الإسلام الذى كان قد أشرفت قوته على الزوال يستعيد قوته ويصبح أشد خطرا من ذى قبل » .

وقد بدأت بعد ذلك دعوة الإسلام تنتشر فجأة بين افراد هذا الشعب ويتحقق على ايدى دعاة الإسلام دخول هؤلاء فى الإسلام إذ بدأ حبة يتسرب إلى نفوس التتار حتى دخلوا فى دين الله أفواجا بعد ان فعلوا ما فعلوا بالمسلمين.



الغزو المغولي

معركة العاشر من رمضان
سنة ١٣٩٣ هـ

تمهيد :

زرعت إسرائيل فى وسط الدول العربية لتحقق للغرب كل ما يريد من الدول العربية ـ فالدول العربية مقسمة ووجود إسرائيل يزيد من الفرقة والخلافات بينها واليهود / بصفةعامة يتصفون بالغطرسة والكبرياء حتى على أنبيائهم وفى ذلك يقول الله تعالى لهم :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُون ﴾ البقرة : ٨٧ .

وقد أحاط الغرب إسرائيل بكل الرعاية والعناية وأعطاها كل ما تطلب من مال وسلاح ليحقق لها السيطرة الكاملة على المنطقة حتى يصلوا إلى ما يريدون.

ومن هنا كانت إسرائيل تحس بأنها تستطيع أن تحقق ما تريد وان تتوسع فى اغتصاب الأراضى وقتل النساء والأطفال والشيوخ .

وبعد هجوم إسرائيل على الدول العربية فى عام ١٩٦٧ م وصولها إلى قناة السويس واحتلالها للجولان فى جولة خاطفة اشاعت فى العالم أسطورة : ان اسرائيل هى الدولة التى لا تقهر .

ثم أقاموا خط بارليف على الضفة الشرقية من قناة السويس وقالوا : إن أحدا لا يستطيع أن يقتحمه إلا بالقنابل الذرية كما قالت اسرائيل : إن سلاح طيرانها هو اليد الطويلة التى تستطيع أن تصل إلى أى مكان فى العالم العربى

ثم جعلها غرورها تقول فى كبرياء وغطرسة إن العرب قوم متخلفون وأنها ستتولى القضاء عليهم لتنقذ العالم من شرهم كما أنقذت امريكا العالم من شر الزنوج المتخلفين فأبادتهم ونشر ذلك فى كتب لهم .

وشعر العرب بالذلة والمهانة فى كل مكان يحلون به كما ادركوا ان الاعتماد على روسيا وامريكا إنما هو سراب فقد اتفقت الدولتان على ما اسموه بالاسترخاء العسكرى .

وقد مرت فترة طويلة كان العالم كله يظن أن الأمر لن يتغير ـ وكان الجيش المصرى تحت الأرض ولا يدرى رجاله ماذا يفعلون ؟ ولا متى ينتهى هذا الوضع ؟

وقد أتيحت لى فرصة أن أذهب إلى الجبهة وأن التقى ببعض الجنود والضباط المصريين وأن أتحدث إليهم وقد كانوا فى حيرة من أمرهم ولا يدرون متى ينتهى هذا الوضع المؤلم وهنا بدأ العرب يغيرون ما بانفسهم حتى يغير الله تعالى ما بهم لقد كانت الجيوش العربية فى حاجة ماسة إلى الإعداد المعنوى لإعادة الثقة بالنفس كما كانت الشعوب العربية فى حاجة إلى مثل ذلك وبدأ الحكام يعدون الجيوش للجهاد فى سبيل الله لأن المجاهد يدرك بفطرته السليمة تكريم المولى له واختياره للجهاد فى سبيل الله فإما النصر وإما الشهادة وبدأ الإعداد المعنوى بمعونة رجال من العلماء منهم الشيخ محمد الغزالى رحمه الله تعالى فقد دخلوا فى وسط الجيش لإعدادهم المعنوى الكامل بعد ان كان هذا ممنوعا من قبل .

وهذا ما جعل الجنود يستبسلون فى الجهاد ضد أعداد الإسلام ليحققوا قول الله تعالى :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُم ﴾ آل عمران : ١٦٠ .

وبذلك اصبح كل جندى يجعل روحه ونفسه وقلبه مصدر إشعاع لكل عمل بطولى وجمال نفسى وجلال خلقى وهذا الاتجاه يجعل الثقة فى نصر الله تعالى محققة لأن الله تعالى وعد من ينصره بالنصر فقال :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ محمد : ٧ .

خط بارليف :

عقب نكسة ١٩٦٧ م واستيلاء اليهود على سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة ووصولهم إلى قناة السويس أصابهم الغرور وأقاموا خط بارليف على الضفة الشرقية من قناة السويس وكان عدد حصون خط بارليف ١٦ حصنا محفورة على الشاطئ الشرقى للقناة ابتداء من بورفؤاد الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط شمالا إلى بورتوفيق الواقعة على خليج السويس جنوبا فى مواجهة ١٦٠ كليو متر ويصل عرضه إلى ٣٤ متر ويصل ارتفاعه إلى ١٥ مترا .

معطيات الموعد :

كان الإسرائيليون يرون أن الجيش المصرى ليس مهيئاً للحرب ـ وبدء المعركة لم يكن يعرفه سوى شخصين ـ وقد اختير ليله مقمر فى الساعات الحاسمة فى ليله تكون فيه سرعة جريان الماء فى القناة ملائمة للعبور ليله تكون فيه العمليات العسكرية بعيده عن نقطة استعداد العدو ليله لا يكون العدو فيه مستعداً للدفاع .

وقد كان هجوم الجيش المصرى مفاجأة لكل الإسرائيليين فقدعبر القناة أكثر من ثمانية آلاف جندى خلال المرحلة الأولى من العبور ، وقد فوجئ العدو بأسلوب القتال المصرى أيضاً . والصواريخ المصرية أسقطت ١٢٥ طائرة تشكل ١٨٪ من السلاح الجوى الاسرائيلى وبعد ١٢ ساعة من بداية الهجوم كانت القوات المصرية قد تمكنت من تحرير مساحات كبيرة من الأرض على

جميع خطوط المواجهة بعد أن دمرت للعدو ١٥٠ دبابة واستطاعت قوات الدفاع الجوى إخلاء ساحة المعركة من طيران العدو بعد أن اسقطت له ٢٩ طائرة منها طائرتا هيلكوبتر .

كما جرت بعد الظهر معركة جوية فى شمال الدلتا خسر العدو فيها ١٥ طائرة وفى ذلك يقول الجنرال جوتين القائد الإسرائيلى لجبهة سيناء لوكالة الاسيوشتبرس : إن المصريين كانوا يقاتلون بشراسة انتحارية فى أعنف رد على تحركاتنا .

خطة برج الحمام :

ذكر اللواء جمال حماد فى مجلة منبر الإسلام سنة ١٤١٨ ما يأتى :

فى صباح العاشر من رمضان اتصل الجنرال جوتين بالجنرال ربراهام ماندر (البرت) قائد جبهة سيناء وأبلغه انه قد صدرت له أوامر برفع درجة الاستعداد وتعبئة الاحتياطى وان هجوما عربيا على جبهتى القناة والجولان سوف يبدأ فى الساعة السادسة مساء .

وقد فوجئ الاسرائيليون مفاجأة تامة بالهجوم المصرى إلى الحد الذى جعل احد المهندسين الإسرائيليين (شيمون بال) يفاجؤ بقصف المدفعية المصرية ـ ثم وجد رجال الصاعقة المصرية يقفون فوق رأسه حيث وقع فى الأسر ـ كما ان جنود بعض الدشم كانوا خارجها وهم يرتدون المايوهات عند بدء القصف المدفعى المصرى ، ولم يحاول أحد من قادة اسرائيل على جميع المستويات الافتراض بان موعد بدء الهجوم ضدهم الذى تلا إبلاغه لهم وهو فى السادسة مساء ربما يكون غير صحيح أو قصد به التضليل أو الخداع .

وقد تمكنت فرقة المشاة المصرية من سحق الدبابات الاسرائيلية .

وقد قام المصريون بشق ستين ثغرة فى الساتر الترابى كما أقاموا عشرة كبارى وخمس معديات عبر القناة وذلك خلال ست ساعات وارتفع علم مصر بعد ١٢ ساعة من بدء الهجوم / كانت القوات المصرية قد تمكنت من تحرير مساحات كبيرة من الأرض على جميع خطوط المواجهة بعد أن دمرت للعدو ١٥٠ دبابة غير العربات المدرعة .

وفى معركة أسقط طيار مصرى بطل خمس طائرات إسرائيلية كما دمر ثلاث طائرات بصواريخه ، ثم اقتحم بطائرته طارتين للعدو وحين سقطت الطائرات فى الجو أخذ الطيار البطل يهتف الله أكبر الله أكبر كما أن طيارا آخر اسقط سبع طائرات وطائر أخر دمر بطائرته صواريخ أرض جو للعدو وقد تمكن رجال المظلات من تدمير ١٥٥ دبابة إسرائيلية بخلاف العربات المدرعة .

وبعد عبور القوات المصرية قناة السويس كان عدد الشهداء ٢٨٠ فقط بعد أن كان المفروض ان يكون العدد ثلاثين ألفاً ـ وكانت الخسائر عشرين دبابة وقد تعرضت الدبابات الإسرائيلية خلال تقدمها من الخلف إلى الإمام لعشرات من قذائف الصواريخ والقنابل الحارقة للدروع ـ فقد انهالت قذائف ارب جى على الدبابات الاسرائيلية ، وكانت أشد الصدمات تأثيرا عليها حينما اكتشفت الدبابات الاسرائيلية ان معظم المصاطب المعدة لها من قبل على طول خط الحصون والتى كانت تتيح الفرصة للاستتار من القذائف المهلكة التى تتعرض لها ، فقد سبقها رجال الصاعقة المصريون إلى احتلالها وراح هؤلاء يمطرونها بوابل من قذائف ارب جى مما جعلها تهرول فى كل اتجاه بدون نظام من هذا الجحيم .

وقد تم سحق وتدمير كتائب المدرعات والصواريخ المضادة للدبابات والقنابل الخارقة للدروع من الشاطيء الغربى للقناة ولم ينج من الدبابات الاسرائيلية

المائة من الدمار والوصول بعد ذلك إلى خط بارليف سوى عدد قليل توزعت على بعض الحصون .

وغرور الاسرائيليين جعلهم لا يضعون آية خطة لإخلاء الحصون ولذلك أصبحت الحصون مطوقة بالجيش المصرى من كل جانب ومعزولة عن باقى القوات الاسرائيلية فى سيناء وبعد أربعين ساعة من بداية الحرب تم تدمير ثلاثة الوية اسرائيلية مدرعة وقد فقد الاسرائيليون ثلثى دباباتهم كما حوصر حصن لسان بور فؤاد وعزل عن جميع الجهات وقد استسلم جميع من كان فى الحصن وعددهم ٤٢ فردا منهم خمسة قتلى وعشرون جريحا .

وفى يوم ١٣ من رمضان خسر العدو ٢٤ طائرة فانتوم و ٣٦ دبابة وعددا من المدرعات ووقع فى الأسر عدد من القوات الجوية وكانت خسائر مصر ١٠ طائرات بالإضافة إلى بعض الخسائر فى الافراد والمعدات .

وبذلك انتهت أسطورة خط بارليف الذى لا يفتح إلا بالقنابل الذرية .

وأصبحت الأعلام المصرية تخفق فى شموخ فوق جميع حصون خط بارليف وأثبت الجنود المصريون أنهم حقا خير أجناد الأرض كما قال النبى ﷺ وقد كان هتافهم الله أكبر الله أكبر الذى دوى فى الفضاء كدوى الرعد فكان له مفعول السحر فقد أمد الجنود بالقوة الروحية الهائلة التى مكنتهم من عبور قناة السويس التى كانت تعد من أصعب الموانع المائية فى تاريخ الحروب كما مكنتهم من اقتحام خط بارليف الذى كان الاسرائيليون يقولون انه لا يفتح إلا بالقنابل الذرية !

عندما أخذت أرقام الخسائر البشرية تنكشف سيطرت مشاعر الكآبة والإحباط والمرارة والعزلة على الإسرائيليين وتزايدت الأمراض النفسية والقلق والتوتر بشكل جارف .

انهيار قادة إسرائيل :

لقد عبر القناة نحو ثمانية آلاف جندى مصرى خلال المرحلة الأولى من العبور وفوجئ العدو بأسلوب القتال المصرى أيضا والصواريخ المصرية أسقطت ١٥ طائرة تشكل ١٨ ٪ من السلاح الجوى الاسرائيلى وقد قالت جولدا مائير رئيسة الوزارة الاسرائيلية فى كتابها (حياتى) :

ليس أشق على النفس من الكتابة عن حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ حرب يوم الغفران ولن اكتب عن الحرب من الناحية العسكرية فذلك أتركه للآخرين ـ ولكنى اكتب عنها ككارثة ساحقة وكابوس عشته بنفسى وسيظل باقيا طوال العمر لقد شنت هذه الحرب علينا بأسلحة مفزعة كالصواريخ المضادة للدبابات التى كانت تحول الدبابات فى لحظات إلى كتلة من النيران وتعجن أفراد الدبابات فى داخلها ، وكان يصعب معها حياة شخصيات الأطقم التى عجنت، ويقول موسى ديان فى فبراير عام ١٩٧٤ م :

إن حرب اكتوبر اثبتت للعالم أنا لسنا أقوى من مصر ـ كما أن هالة التفوق الاسرائيلى التى كانت إسرائيل توهم العالم بأنها أقوى من العرب سياسياً وعسكرياً وأن العرب إذا تجاسروا وبدؤوا الحرب فإن الهزيمة ستكون من نصيبهم هذه النظرية قد انهارت تماماً .

ويقول كريستوفر مايهو فى كتابه (ممنوع من النشر) لندن ١٩٨٣ :

(الجانب الإسرائيلى الذى عرف عنه الانتصار الدائم على العرب والذى صورته الصحافة الغربية المتعاطفة معه على أنه أسطورة قد تأثر بشدة بأحداث اكتوبر فكل حصنه اقتحمت وكل طائرة فانتوم اسقطت لقد كان ذلك فى نظر العالم انتصاراً مضاعفا للعرب نتيجة للتصور المسبق عنهم والتصور المسبق عن اسرائيل التى لم يتعود العالم رؤيتها فى هذا الموقف) .

لعنة ارض الميعاد :

بالإضافة إلى الخسائر العسكرية والسياسية والاقتصادية كانت هناك خسائر اخرى فقد أصابت الاسرائليين حرب العاشر من رمضان بما يشبه الزلزال ويتساءل الدكتور موسيه ديفيد الأستاذ بجامعة تل ابيبت قائلاً : لماذا أحابى دولة ترسل ابناءها لكى يقتلوا فى حرب كل ست سنوات ؟ ولماذا أحابى دولة تخصص أموالها لحروب عبثية ؟ ولماذا أشارك فى التمسك بتلك الأخلاق المزيفة السائدة هنا ؟ والأديبان يونان حنين ويعقوب روبفليت اللذين شاركا فى حرب ١٩٦٧ جنودا فى سلاح المشاة وفقد فيها يعقوب احدى قدميه واعترفا بعد هزيمة العاشر من رمضان بأنهما أصيبا بصدمة جعلتهما يفكران فى الهجرة ضمن أعداد كبيرة من الإسرائيليين هاجرت بعد انتهاء حرب العاشر من رمضان الأمر الذى اصاب الحكومة الإسرائيلية بالهلع ودفع رئيس الوزراء فى ذلك الوقت عام ١٩٧٦ إلى القاء خطاب وصف فيه هجرة الإسرائيليين بأنها سقوط الضعفاء وفى مجال الفن أفرزت هزيمة اسرائيل ظهور فرق غناء تميل إلى الانقياد إلى ما يسمى التقاليد التوراتية ، وأهمها فرقة الطبيعة التى استمدت الحانها من التراث الشرقى وبدأ أعضاء الفرقة يعلنون صراحة عن رفضهم للمجتمع الإسرائيلى وحنينهم إلى أوطانهم الأصلية التى قدموا منها .

موقف امريكا :

لقد دعمت أمريكا اسرائيل عسكريا وسياسيا واقتصاديا ، وقد صرح السفير الاسرائيلى لكيسنجر وزير الخارجية الامريكى بأن اسرائيل قد فقدت فى الأربعة أيام الأولى خمس سلاحها الجوى وربع دباباتها فقامت طائرة استطلاع امريكية بعملية مسح واسعة أعقبتها طائرة استطلاع أخرى .

وفى يوم ١٠/١٢ قام جسر أمريكى جوى إلى اسرائيل واستخدم فى هذا الجسر ٢٢٨ طائرة بلغت رحلاتها ٥٩٦ رحلة بالإضافة إلى الجسر البحرى الذى قام بنقل الدبابات والمدافع والعربات المدرعة .

المعهد البريطانى :

وقد أصدر المعهد البريطانى تقريرا عن هذه الحرب ذكر فيه : أن عبور الجيش المصرى لقناة السويس الذى تم فى السادس من اكتوبر كان يصعب تحقيقه بهذا النجاح حتى ولو كان الأمر مجرد عملية تدريب بدون عدو ومواجهة وكل التقارير تشير إلى أن المصريين هاجموا بشجاعة بالغة وإصرار ودافعوا عما كان عليهم أن يفعلوا ذلك بعزيمة ونجاح ولقد صمد مشاتهم بكل تأكيد امام هجوم كبير بالدبابات ـ وهى من أكبر الأشياء إثارة للرعب ولسوف يوافق كل المحترفين على أن عبور القناة قد تم بصورة رائعة غير عادية ـ ولو فرضنا أن المرء كان مكلفا بكل أعمال تجمع القوات الهندسية والقيام بواجبات اركان الحرب والانطلاق بها دون اية غلطة لكان الأمر من الصعوبة بمكان وكان انحيازة للأخطاء امرا عرضيا جدا مع عدم وجود عدد ولم يكن هناك من يصدق ان المصريين كانوا قادرين على ذلك منذ سنوات ولكنهم فعلوه ـ لقد دفعوا بقوات هجومهم عبر القناة وحققوا النتائج التى ارادوها ـ لقد استيقظت روح القتال بكل تأكيد لدى المصريين .

صيحة الله أكبر :

قال صاحب كتاب حرب الساعات الست : لقد كان الإيمان بالله تعالى أقوى سلاح فى المعركة وكانت صيحة الله أكبر الله أكبر التى أطلقها الجنود وهم يعبرون القناة تتردد أصداؤها فى جنبات سيناء وتشق عنان السماء أبلغ دليل على تمسك مجتمعنا بالمبادئ والقيم الأخلاقية الدينية وأقوى برهان على

بطلان ما أراد العالم أن يصفنا به بأننا شعوب قد تخلت عن العقيدة الدينية واتبعت مذاهب سياسية معروفة بخوائها الروحى محرومة من قوة الإيمان .

نتائج حرب العاشر من رمضان

لقد كانت هذه الحرب سببا فى وحدة عربية شاملة وحققت موقفا عربيا موحدا لم يشهده العالم العربى من قبل وعززت الوحدة الوطنية بصورة لم تشهدها مصر من قبل وأعادت إلى القوات المسلحة المصرية ثقتها بنفسها كما اعادت لشعب مصر ثقته بقواته المسلحة وقضت على أسطورة جيش اسرائيل الذى لا يقهر كما غيرت الاستراتيجية العسكرية فى العالم كله وحركت ازمة الشرق الأوسط بدرجة لم تحدث فى اى وقت مضى وقالت صحيفة هويتشيل الالمانية : ان الجنود العرب قد قاتلوا هذه المرة بصورة لم تعهدها فيهم ولم يتوقعها العالم منهم وخرجت قصص وبطولات يفوق بعضها الخيال كما اعادت إلى الاذهان انتصار المسلمين فى بدر فى عين جالوت وفى ملاذكرد وفى غيرها وقال مراسل مجلة تايم ان روح المقاتل العربى كانت عالية جدا وكان المصريون يلوحون لنا فرحين وهم يهتفون : الله أكبر الله اكبر .

يقول الدكتور جمال حمدان : ان أبرز ما حققته معركة العاشر من رمضان انها أكدت فدائية المقاتل العربى واستبساله وإقدامه بلا تردد ولا تراجع عن تحقق أهدافه مهما كان السلاح الذى يواجهه .

وقد أثبت المعركة قدرة المقاتل العربى على استيعاب أعقد الأسلحة الحديثة والمتطورة والسيطرة عليها بكل كفاءة إلى جانب التفوق فى كل فنون القتال والتخطيط والتنفيذ وتشتت إلى الأبد كل الاساطير والدعايات الظالمة الكاذبة التى ركز العدو عليها كل جهوده ضد المقاتل العربى وما هو خطير فى تدمير خط بارليف وحصن الجولان إنما هو تدمير صورة ثابتة عن الإنسان العربى كانت رائجة ، وقد أعاد العدو اكتساب حقيقة معدن المقاتل والإنسان العربى .

والله أكبر سلاح تولت تدريسه المعاهد العليا والاستراتيجيا العالمية والتحول من التغرب إلى الاصالة .

وهكذا أثبتت معركة العاشر من رمضان وهى آخر المعارك الرمضانية الفاصلة فى تاريخ الإسلام حتى الآن ان المسلمين قادرون على تحقيق النصر فى كل زمان ومكان إذا ما اتجهوا إلى الله تعالى وأخذوا بالأسباب وساروا فى طريق الجهاد لا يبغون إلا إرضاء الله تعالى وتحقيق وظيفتهم فى هذه الحياة فالله سبحانه وتعالى هو الذى اجتباهم وجعلهم خلفاء فى الأرض يعمرونها طبقا لمنهج الله تعالى وينشرون فيها الأمن والسلام والعدالة والاطمئنان القلبى والراحة النفسية ولمثل هذا فليعمل العاملون.

خاتمة

وهكذا نرى أن صوم شهر رمضان يعطى للمسلم طاقة روحية هائلة لصلته بخالقه الصلة التى تصل بالمسلم الصائم إلى مرحلة التقوى .

وبذلك يكون الصوم تربية خاصة للمسلم تربيه على الصبر وعلى ما لا يصبر عليه عادة فهو بذلك يتحرر من ذاته ويتربى على ضبط أعصابه فلا يثور لأول وهلة بل ان الصوم يقيم الاعتدال فى طبيعة المسلم وحركته وإلى جانب ذلك فان الصوم يساعد على اقامة مجتمع إسلامى سليم متحاب متعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، وهذا المجتمع له قيادة حكيمة يرجع إليها فى كل أمر من أمور حياته وتكون تصرفاته كلها منسجمة مع تعاليم الإسلام مهما تكون مخالفة للعادات التقاليد .

والمسلم الصائم قبل أن ينطلق إلى الجهاد فى سبيل الله فإنه يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر مع نفسه الأمارة بالسوء ومع نزعات الشيطان وهو محتفظ بعبوديته لخالقة فالإسلام جاء ليكون إعلانا عاما لتحرير الانسان

فى الارض من العبودية للعباد ومن العبودية للشيطان ومن العبودية للنفس الأمارة بالسوء .

ولم يكن من المصادفة أن يفرض الصوم فى العام الذى فرض فيه الجهاد فى سبيل الله لرد العدوان ونشر الإسلام فالصوم هو تقوية الإرادة العازمة ومجال اتصال الإنسان بربه إتصال طاعة وانقياد .

والصوم ليس حرمانا وحدا من حرية الانسان بل إنه يطهر النفس ويوجه عقل الصائم كى يسترد حريته ؛ حرية ارادته وحرية تفكيره فإذا استردهما استطاع السمو إلى أعلى مراتب الإيمان الكامل بالله تعالى الواحد الحق .

وصوم رمضان فرصة لتربية المسلم عن طريق القدوة حيث يقتدى الصغير بالكبير وحيث يقتدى المسلمون جميعا بالنبى ﷺ عن طريق دراسة القرآن والسنة وعن طريق تكوين القيم التى أمر بها رسول الله وبذلك يكون الصوم تربية عملية كاملة للمجتمع الإسلامى وتدريب على احتمال مشقات الحياة .

وصوم رمضان يجعل المسلم متكيفا مع نفسه ومع مجتمعه ومع خالقه وهذا ما يجعله قادرا على الجهاد فى سبيل الله والانتصار على اعداء الإسلام .

وهكذا نجد ان شهر رمضان على امتداد الزمان والمكان كان فيه الخير كل الخير للمجتمعات الإسلامية الذين استطاعوا ان ينتصروا على أعدائهم وان يفتحوا الطريق امام الدعوة الإسلامية ونشر العدالة والامن والمساواة بين الناس جميعا سواء أكانوا مسلمين او غير مسلمين .

وقد كانت أول المعارك الرمضانية الفاصلة فى تاريخ الإسلام هى غزوة بدر الكبرى التى أثرت تأثيرا كبيرا فى مجتمع الجاهلية الاولى فبدؤوا ينظرون إلى الإسلام نظرة اخرى وبدؤوا يدخلون فى دين الله أفواجا وافرادا وكانت اخر معركة رمضانية فاصلة هى معركة إسرائيل مع المصريين التى أبطلت مزاعم

الاسرائيليين الذين كانوا يقولون ان الجيش الأسرائيلى هو الجيش الذى لا يهزم وان خط بارليف لا يمكن ان يخترق إلا بالقنابل الذرية ولكن معركة رمضان سنة ١٣٩٣ هـ أظهرت كذب هذه الادعاءات وبدأ الغرب كله يعيد تفكيره فى قوة إسرائيل وفى إمكانات العرب كما بدؤوا يدرسون فى الكليات الحربية فى العالم الاساليب التى قام بها الجيش المصرى حتى استطاع ان يحرز هذا النصر الذى لم يتوقعه احد فى العالم .

وهكذا نرى أن شهر رمضان هو شهر الخير وشهر التربية وشهر النصر وعلينا أن نعيد صياغة انفسنا صياغة إسلامية كاملة جاعلين شهر الصوم هو شهر التربية الجسمية والتربية العقلية والتربية النفسية وتربية الصلة القوية بالله تعالى وبذلك نضمن النصر الدائم على أعداء الإسلام لاننا ننصر الله فينصرنا الله ويثبت اقدامنا وبذلك نفوز برضوان الله فى الدنيا وفى الآخرة ولمثل هذا فليعمل العاملون .

الفهرست

كُتُب للمؤلف

١- أضواء على التربية في الإسلام .

٢- وظيفة المرأة في المجتمع الإسلامي .

٣- جامعات يوسف .

٤- دور المرأة في الحضارات المختلفة .

٥- الحدود في الإسلام .

٦- بديع الزمان النورسي .

٧- علم الإنسان في القرآن الكريم .

٨- الحضارة الغربية تسير إلى الهاوية .

٩- الإسلام يدلل المرأة .

١٠- معارك رمضانية فاصلة في تاريخ الإسلام .

كُتُب تحت الطبع

١- الفن بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى .

٢- الحكمة في التشريعات الإسلامية .

٣- الترف ودوره في إنهيار الأمم .

٤- الرجولة في القرآن الكريم .

٥- الثورة صناعة الغرب .

٦- الإتيكيت : فـــن الذوق .

٧- أوسمة إلهية . ٨ - أوسمة نبوية . ٩- لماذا أسلمنا .

١٠- مكة المكرمة . ١١- المدينة المنورة . ١٢- مفاهيم إسلامية .

